وزارة الثقافة

رواية

أم حكيم

الكاتب

محمد تميمي

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

رواية

إم حكيم

الكاتب

محمد تميمي

اسم الرواية: أم حكيم

اسم المؤلف: محمد تميمي

تصميم غلاف: غاوي خليل
تدقيق لغوي: نور عرفات
تصميم وإخراج فني: غاوي خليل
صفّ وتنضيد: شادية الخطيب
منشورات: وزارة الثقافة الفلسطينية

الطبعة الأولى:

الطبعة الثانية: وزارة الثقافة الفلسطينية (2023)

جميع الحقوق محفوظة.

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق إستعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved
No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, withoutprior permission of the publisher.

سنة الإصدار
(2023)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القديم في مجده المتعالي بجده الذي عنت الوجوه لقصده، وإن من شيء إلا يسبّح بحمده والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف الأنام وبهجة هذا العالم والنظام وعلى آله الطاهرين الطيبين وصحبه والتابعين أجمعين وبعد.

فهذه طرفة أدبية ورواية عربية برزت من الذوق، وإن كان قد شبّ عمرو عن الطوق مشيّعة بمائة وواحد من محكمات المثاني كمطربات الأغاني لتجلى على شموس الأدب استماعًا للأمر وإتباعًا للطلب موسومة بالدر النظيم في أم حكيم.

حديث ليلى خير من ألف ليلة وليلة في دهاء دمنة في حكمة كليلة، وقصة يلهو بها النديم ويصغي لها الحكيم ولا ينبو عنها الطبع الكريم، فهي تحفة الجليس ونزهة الأنيس وتسلية لمن أرّقه همّ دهر خسيس.

نسأله تعالى الرضا وحسن الختام بجاه أنبيائه الكرام.

حدّث همام بن الحارث عن المقدام أبي الحوادث قال:

خرجت يومًا أدور ما بين الأزقة والدور فصادفني بالاتفاق أن مررت على زقاق أرضه بكافور الرمل مفروشة وبلؤلؤ الحصباء منقوشة، فأداني الإعجاب والتيه على أن دخلت فيه فرأيت في صدره دارًا كبيرة واسعة تدل على أنها لذي سعة وبابها مفتوح والطيب من أرجائها يفوح، فوقفت أستنشق الشذا وأتجنب الأذى وإذا بعشرة كالأقمار من أبناء التجار أقبلوا على بغالهم الشهب ينقضون كأنهم الشهب، فنزلوا

عند الباب وأمروا بربط الدواب، واستقبلهم رب البيت وكان من أعيان تجار الزيت، ولمحني فعرفني وعاد إليَّ وسلَّم عليّ ودعاني، فحمدت عودته ولبّيت دعوته وانخرطت في سلك الجماعة، ودخلنا جميعًا إلى القاعة وإذا هي في غاية الانتظام حسب ما يليق بالمقام، فجلسنا وائتنسنا.

وبعد العِشا حضر العَشا فأكلنا ما اشتهينا حتى انتهينا، وبينما نحن كذلك وإذا بالجوّ قد أرعد واضطرب وانفتحت أبواب السماء تمطر كأفواه القرب، فتَكَدَّر الصفو من تكدُّر الجو وجلسنا باهتين ساكتين نحسب حساب النوّ وضاع الأنس والانشراح من هم وهم مشقة الرواح، وكلما قلنا يكف القطر جاد أو يخف الأمر زاد واشتد البأس وعلانا اليأس، فلما رأى رب الدار ما ألمَّ بنا من الهم والعنا قال: يا سبحان الله قد عُدم الرشد أم تاه أنتم في داركم وأمري تحت أمركم، فأقيموا مكانكم لا براح حتى يصبح الصباح ويطيب الرواح وتروق الأحوال وتزول الأوحال، فتنصرفون آمنين سالمين.

وعندي نديم كريم لديه حديث قديم يلائم الطباع ويشجي الأسماع، فيحدثكم الليلة حتى ينجلي الظلام ومن شاء أن ينام نام، ومن شاء أن يقيم أقام، فضرب القوم أخماسًا لأسداس وأبى البعض وقبل البعض من الناس ثم اتفق الكل على الإقامة وألا نأبى الكرامة وطابت النفوس واستقر الجلوس، وتجدد الانشراح بصرف هم الرواح، ولما أخذ القوم مجالسهم وما بقي إلّا من يؤانسهم دخل عليهم ذاك النديم وهو في رقة الماء ولطف النسيم، فسلم وجلس وحادثناه حتى ائتنس، ثم قدّمنا له الشكر وعرضنا عليه الأمر فقال: يا وجوه العشيرة وأهل المروءة والغيرة إن ضمنتم أن تتفرغوا للحديث ولا

يشغلكم قديم أو حديث، أسمعتكم من طرف الحوادث أطرب من المثاني والمثالث، وإن لم تأمنوا الطبع وكان فيكم من يمل السمع، فاعفوني من مثل هذي ولا تجعلوني عرضة لهاذي. فقلنا له: أنت الأعز الأجل ومن حديثك لا نمل، وكلنا لحديثك آذان فتكرّم علينا بالإحسان. فقال: العفو يا سادتي العفو ما قصدت إلّا تأكيد الصفو.

ولبى وأجاب وتناول الكتاب وابتدأ يقول صلوا على طه الرسول قال الراوي:

كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان ملك بخراسان يُدعى الملك توران شاه وكان ملكًا عادلًا ورجلًا فاضلًا وبحرًا في العلم وطودًا في الحلم سليم الطوية تحبه الرعية، وله أخ يسمى تترخان بضد هذه الأوصاف ومعاشرًا أخاه على الخلاف، لكن بحكمة الملك وحلمه آمن الناس من ظلمه، وكان للملك ولد يدعى عمر شاه قد هذبه ورباه وأحسن مرباه، فلما كان له من العمر تسع عشرة سنة توفي والده الملك توران شاه إلى رحمة الله، وتقلّد المُلك بعد والده الملك عمر شاه، فسرت دسائس عمه حتى بات في همه فنبه الهمة واستعمل القسوة وردع كل فاسق وفاجر ومفسد متظاهر، فانطوى عمه وأخفى الحقد وأظهر الإخلاص والود، وصار يداهن الملك عمر شاه ويخاتل ويكاتب ذوي الفساد ويراسل، حتى اجتمع تحت كلمته حزب كبير وجم غفير، فواعدهم على ليلة فيها يهجمون على قصر الملك وأوعدهم بجزيل العطاء إذا هو مَلَك، وفي ليلة الموعد جلس تترخان في حضرة السلطان، وإذا بصياح الحرس في القصر وقد اشتد الحصر، فجرى من حضر ليكتشف الخبر وخلى تترخان بالملك فنهض إليه

وقبض عليه، وأدركته رجاله فملكوا المكان والقصر والإيوان وسجنوا الملك عمر شاه في البرج كشمس حلت البرج.

الملك لله ليس الملك للملكِ

ولو تربع دست الملك في الفلكِ

كم من مليك أتى بالأسد صاغرة

فما مضى اليوم حتى بات في الشركِ

قال الراوي: وأصبح الملك عمر شاه وهو في الأسر وتترخان عمه قد غلب على الأمر بالقدر والقهر، ولم يتم اليوم حتى خضع القوم.

فأمر تترخان اثنين من خاصته ووجوه حاشيته أن يتوجها ليلًا إلى البرج ويقتلا عمر شاه، وأرسل نبه على رئيس الحرس الذي عليه أن ينفذ الأمر إذا وصل إليه، وكان رئيس الحرس هذا جنديًا من المختصين بحراسة الملك توران شاه أيام حياته، وجنى جناية وخاف غضب الملك عليه، ففر وهرب والتجأ إلى تترخان وأقام معه في بلاد الجبل حيث كان يقيم، وصار يتقرب إليه بانتقاص أخيه لديه حتى صار له قبولًا تامًا وأمرًا عامًا عند تترخان والملك يبلغه ويحلم كأنه لا يعلم، ولما ثار تترخان على ابن أخيه وسلبه ملكه الذي كان فيه، كان هذا أول القواد أصحاب الحل والعقد الذين بذلوا في نصرته كل ما كان في الجهد، واختاره لحراسة عمر شاه لثقته بهِ وأنهُ من أعزّاء حزبه، فلما وصل تنبيه الملك تترخان إلى رئيس الحرس هذا بقتل الملك عمر شاه على يد من سيحضر إليه ليلًا.

اختلى بنفسه وتفكر يومه وأمسه، وقال: غدر وعدوان وكفر إحسان إن هذا لهو الخسران المبين، فإن توران شاه ولي نعمتي وأصل غنيتي وطالما أحسن إليَّ وتكرَّم وتفضل عليَّ، وقد جنيت ما جنيت واساته بعلمه فقابلني بحلمه، فلا بد أن أجازيه خيرًا ما دام الخير في الإمكان فما جزاء الإحسان إلا الإحسان.

إذا مـا رمـت للآفات دفعًا

وترعاك النواظر والعيونُ

فعمم بالتكرم لا تخصص

فما تدري النجاة بمن تكونُ

قال الراوي: فلما حسب رئيس الحرس حسابه وألهمه التوفيق صوابه، قام ودخل على المجرمين المسجونين وبحث فيهم حتى وجد مجرمًا منهم أشبه الناس بالملك عمر شاه، فأخذه وأتى به إليه وألبسه ثيابه وألبس المجرم ثياب عمر شاه التي عليه ووضعه مكانه وأخرجه واختلى بهِ، وقال له: إن الملك قد أمر لك هذه الليلة بالقتل ولأبيك عليَّ إحسان وفضل، وأريد أن أكافئه الآن فاحلف لي يمين الصادق الأمين أنك لا تقيم في هذه البلاد ولا تظهر أمرك لأحد من العباد ما دام تترخان حي وعامر به الحي، فحلف له وشدد في يمينه حتى وثق بحلفه لما يثق من دينه، وأخرجه من البلد بدون أن يشعر به أحد، ولما كشف البر وخلا له الطريق ورأى الفرج بعد أن أيأسه الضيق حمد الله وأثنى عليه، وجَدّ في السير ماشيًا على رجليه.

الصبر مفتاح الفرج

فأبشر إذا اشتد الحرج

كم مودع في سجنه

حتى إذا ضاقت خرج

قال الراوي: وحضر ليلًا من حضر من عند تترخان فأدخلهم رئيس الحرس إلى البرج، وأخرج لهم شبيه عمر شاه فقتلوه ورموه في جب هناك، وعادوا فأخبروا تترخان ففرح وانسر واستبد بالأمر.

وما زال عمر شاه يقطع تلك الروابي والآكام تحت ذيل الظلام حتى لاح الصباح، فانحرف عن الطريق وانعطف لسفح جبل فيه مغارة فدخلها، وأدركه الإعياء فمال إلى جانب منها ونام حتى دخل عليه الظلام، وكانت هذه المغارة مأوى للصوص لارتكاب الجرائم واقتسام الغنائم، ولما كان نصف الليل حضرت اللصوص من الغارة إلى المغارة ومعهم غنيمة لها قدر وقيمة، فجلسوا يقتسمونها ويقدرون أثمانها، وبينما هم في شأنهم إذ لاحت التفاتة من أحدهم فوجد حيَّة تسعى كأنها النخلة السحوق وتلمع مثل لمع البروق، وهي قاصدة الركن الذي به عمر شاه، من قبل أن ينظره أحد أو يراه، فأخذ هراوتهُ وقام وراءها فقتلها بهراوته وجندلها بقساوته.

يا هاربًا وجنود الدهر تتبعه

إن السلامة في التسليم لله

أردى العدو عدو لست تعرفه

وذبّ عنك وأنت الغافل اللاهي

قال الراوي: ولما أراد الرجل قاتل الحية أن يعود لمكانه سمع غطيط النائم فقصده فعثر بعمر شاه وهو راقد مستغرق في نومه لا يدري أمسه من يومه، فعاد إلى وراه وأخبرهم بما رآه فقالوا عد حتى نفرغ من أمرنا وننظر في أمره، ولما فرغوا أيقظوه فانتبه من النوم فوجد القوم فيئس من الحياة وسلم أمره لله، فأتوا به إلى زعيمهم وهو في ثياب ذلك المجرم الذي قتل بدله في البرج، فلما نظره قال له: من أنت؟ ومن أين أقبلت؟ وأين قصدت؟ فقال يا إخوان الليل وذوي القوة والحيل: أنا رجل كنت مثلكم أعيش بالسيف وأكرم الضيف وقد أوقعني الزمان في قبضة السلطان فأمر بقتلي جزاءً على فعلي، فقيض الله لي بعض الأعوان من حاشية السلطان فمهد لي طريقًا للفرار فهربت ليلًا حتى وصلت إلى هذا المغار فنمت من الإعياء والتعب لما لحقني من النصب حتى أيقظتموني الآن، فالشأن شأنكم والأمر أمركم.

وكان عمر شاه يتكلم ورجل من القوم ينظر إليه ويتأمل فيما عليه، فلما أتم كلامه وإذا بذلك الرجل يصيح هذا والله الحارث بن سنان فتى الفتيان وفارس الزمان، وهذه الجبّة التي عليه جبّتي وقد كسوته إياها مذ مرّ علينا يوم أن ضبطوه وأرسلوه إلى خراسان، وقد خرجت الناس للفرجة عليه وكنت معهم فرأيته مكبلًا في الحديد وهو يرتعد من البرد الشديد، فخلعت جبّتي هذه عليه ووهبتها إليه، وإمارتي في جبّتي أن في بطانتها ما بين الكتفين قطعة من جلد ثعلب، فخلعوا عن عمر شاه تلك الجبّة فوجدوا كما وصف الرجل فصح الخبر وتحقق النظر، وسلموا عليه وتوجعوا إليه، وقالوا له: لم أخفيت اسمك عنا وأنت واحد منا؟ فقال لهم يا ذوي

العشيرة وأولي البأس والغيرة: أنا رجل طريد الزمان وبغية السلطان، فكيف أصرح باسمي ودونه سفك دمي، ولكني قد أجملت العبارة والحر تكفيه الإشارة. فقالوا: قد صدقت.

وكان قد ضاق الوقت فسألوه: وما قصدك من البلاد؟ فقال: قصدي بغداد، فإن كنتم مننتم فأطلقوا لي السراح قبل هجوم الصباح، فقالوا: قد وجب وافترض وأنت شريكنا في العَرَض، ثم أحضروا له جوادًا من الجياد، وثيابًا من ثياب الأجناد، وكسوه درعًا سابغًا من تحت الثياب، وسلّحوه بسيف ورمح وقوس ونشاب، وجعبة من جلود الأبقار بها خبز وآدام وصرة فيها ألف دينار، فاستولى على الجميع وشكر لهم الصنيع، وخرجوا معه وشيّعوه وودّعهم وودّعوه، وسار وقد انفتح له الطريق وزال عنه التعويق.

كم من عجيب قد نرى

عند الرواح وفي الغدو

يؤذي القريب قريبهُ

ولربما نفع العدوُ

قال الراوي: وكان عمر شاه من الأبطال المعدودة والشجعان المعهودة قد قنص الفوارس في الميدان وخافته الشجعان، فلما رأى نفسه فارسًا دارعًا شاكي السلاح أيقن بالنجاة وحمد الفتاح، وسار يقطع القفار حتى طلع النهار فمال إلى مرج ذي غدير ونزل عن جواده وتركه يرعى من نبات الأرض، وتوضأ وصلى ما عليه من الفرض، ثم أكل وشرب وجلس يستريح من التعب، وإذا بصياح كأنه في كفاح وصريخ

نساء ورجال كأنه في قتال، فنهض قائمًا وتتبع الصوت ليستكشف الخبر وأبعد قليلًا وإذا بجمال وأحمال ونساء ورجال وقافلة حافلة، قد أحاطت بها الفرسان من كل مكان، فقتلوا حماتها وشتتوا ولاتها، وهوادج فيها نساء يصحن بالويل وقد سبتهم الخيل، فلما رأى ذلك تحركت فيه غيرة الحرّ الكريم الذي يغير على الحريم، فركب جواده وتقلد سيفه واعتقل رمحه وانقض على القوم انقضاض البازي على أضعف الطيور، فطعن فيهم برمحه وضرب فيهم بسيفه وخلص الهوادج والنسا أولًا، ثم انعطف على الباقي فجعل يضرب ويطعن فيجندل الفرسان ويقتل الشجعان حتى ولى الجميع الأدبار وركنوا إلى الفرار.

وما يجدي العديد لدفع ضيم

ولكن ذاك في همم الأماجد

فكم من واحد يغني كألف

وكم ألف ولا تغني كواحد

قال الراوي: وتراجعت أرباب القافلة وجمعت الجمال والأحمال من على رؤوس الجبال، ثم اجتمعوا على عمر شاه وشكروه وأثنوا عليه وقبلوا يديه وتراموا على رجليه، وقالوا له: يا فارس الزمان وفريد العصر والأوان نحن الكل صرنا طلقاك وفي كنفك وحماك، ونرجوك الآن أن تمن علينا بالإحسان وتختار من أموالنا ما تختار فجميعها بين يديك وإن أردت الكل فهو لك ولا نمن به عليك. فقال لهم: يا وجوه الخير لا لقيتم شرًا ولا ضير بارك الله لكم في مالكم، وأنا ما فعلت معكم إلا ما توجبه الإنسانية والفروض الدينية، وما قصدت بذلك مالًا ولا أردت به نوالًا، بل ذاك وفاء بحقوق

الذمة والدين، ولا أسألكم عليه أجرًا إن أجري إلا على رب العالمين.

دع المعروف عند الله ذخرًا

ولا تبغي بفعل الخير أجرًا

إذا الإنسان أسدى العرف يومًا

على أجرٍ. فلا تحسبه حرًا

قال: وكانت هذه القافلة لسيد من أعيان تجار بغداد يسمى السيد أبا الحسن بن كريم، وكان مقيمًا بخراسان من مدة ولما كثرت الفتن واضطربت البلاد بعد الملك توران شاه أخذ في جمع ماله حتى ثار تترخان وجرى الذي جرى وكان، فقام بعياله وأحماله وجماله واكترى فرسانًا يخفرونـه في الطريق، فلما وصل إلى هذا المكان خرجت عليهم اللصوص قطاع الطريق فقتلوا حاميتهم وشتتوا شملهم ونهبوا الجمال والأحمال وسبوا النساء والعيال حتى تداركهم الله بعمر شاه وقتل الغريم وخلص المال والحريم.

ولما رأى السيد أبو الحسن بن كريم تلك الهمم العلية والنفس الأبية وكرم الأخلاق والجمال الذي فاق تعلق قلبه به وحل في سويداء قلبه، وتقدم واعتنق عمر شاه وسلّم عليه وقبله بين عينيه، وقال له: ما اسم مولاي الأمير، ومن أين أتى وإلى أين قاصد في هذا المسير؟ فقال: اسمي عمير من بني الأجناد وقاصد بغداد، وكنت بخراسان في عسكر السلطان، ولما ثارت الفتن طلقت الوطن. فقال له السيد أبو الحسن: يا أمير عمير أنا رجل شريف ذو حسب ونسب ومعي نساء وعيال

وجمال وأحمال، وخرجت من خراسان قاصدًا بهم بغداد دار السلام، وقد نظرت بعينيك ما فعلت بنا الأشرار سكان القفار، وكيف قتلت الرجال ونهبت الأموال وسبت بنات الأشراف وسلالة آل عبد مناف، لولا أن مَنّ الله بك علينا وساقك بجميل ألطافه إلينا، وقد نراك من معجزات المختار حيث ساقتك لآل بيته الأقدار بلا مقصد ولا اختيار، فنسألك بالله إكرامًا لآل بيت رسول الله أن تمشي معنا ولا تدعنا، فنحن في وجهك ووجّهنا لوجهك فنحن وأنت قاصدون بغداد، ومتى وصلنا فالمولى وما أراد إن شاء رافقنا ونحن لك خدم، وإن شاء فارقنا على أسف منا وندم، فشكر الأمير عمير وأثنى على السيد أبي الحسن بن كريم وقال له: أفديك أنا بروحي وأحميك بصارمي ورمحي إكرامًا لعشيرتك الطاهرة واحترامًا لرغبتك الظاهرة حتى تبلغوا مأمنكم وتصلوا مسكنكم، وبعدها لله شأن إذا وصلنا تلك الأوطان، ونزل عليهم فأعدوا له خيمة مخصوصة وخادمًا مخصوصًا، وفرح السيد أبو الحسن واستبشر وذهب يهني عياله، وكانت له ابنة تسمى السيدة نعاس من أجمل النساء وأكمل الناس، وهي وأمها وجواريهما في تلك الهوادج التي كانت استلبتها القوم وخلصها الأمير عمير في هذا اليوم، فلما ذهب السيد يهني عياله قالت له ابنته السيدة نعاس: من هذا الفتى يا أبتاه الذي حمانا بسيفه وأسرنا بلطفه؟ فقال لها: هو بطل خطير ساقته المقادير ليصون عرضنا إكرامًا لجدنا اسمه الأمير عمير ويزعم أنه من بني الأجناد ويقصد بغداد. فقالت: أما كافأته يا أبتاه على ما أتاه وتستأجره لنا يخفرنا لبلادنا، وتبذل له كل ثمين فإن خير من استأجرت القوي الأمين. فقال لها: يا بنتاه قد بذلت له جميع ما معي من المال والأحمال، فأبى أن يقبل منها شيئًا ولا بقدر العقال، وإنه من النزاهة

والعفة وعلوّ الهمة على جانب عظيم، ولولا التقى لقلت ما هذا بشر إن هذا إلا ملك كريم. ولما سمعت السيدة نعاس هذا الإطناب تفطر قلبها وذاب إلى ذاك الجناب، فقالت: وهل هو مفارقنا أو مرافقنا؟ فقال: قد ارتضى أن يسير معنا إلى بغداد وهناك يفعل الله ما أراد.

يسير المرء قهرًا ليس يدري

لخير أم إلى شر يسيرُ

ورب مخاوف يسعى إليها

يكون وراءها خيرٌ كثيرُ

قال الراوي: وكانت السيدة نعاس من أجمل الحسان في ذاك الزمان مع كرم وعفاف وهمم آل عبد مناف.

فتاة حازت الإحسان طرًا

وفاقت في الجمال وفي الكمال

فلو بلغت مبالغها نساء

لنضلت النساء على الرجال

قال الراوي: ورجع السيد أبو الحسن إلى القوم وكان قد انقضى اليوم، فقال: يا أمير عمير نسير في هذه الليلة أم نقيم؟ فقال: الأحسن أن نسير من هذا المكان الخطير فإذا دخلنا الأمان وتركنا هذه الديار أقمنا ليلًا وسرنا بالنهار.

فأجاب الجميع بالسمع والطاعة وحملوا من تلك الساعة، وركب الأمير عمير جواده وسار معهم كأنه الأسد

الرئبال يحمي الأشبال، وقد ضرب على وجهه اللثام كأنه البدر التمام تحت الغمام، وصار تارةً يمشي أمامًا، وتارةً يمشي من خلف، ومرة يمشي في الوسط، ومرةً يمشي في الطرف، وإذا نزلوا اعتزل القوم بخيمته واعتكف على خلوته، وعيناه ترعى القوم من بعيد لبعيد ولا تقرب إليه الموالي ولا العبيد.

يرى الإنسان في الخلوات أنسًا

إذا كان الكلام له حجابُ

ومن يك همه أمرٌ كبيرٌ

فخلوته الأنيسة والكتابُ

قال الراوي: وساروا على ذلك والسيد أبو الحسن يراقب خدمة الأمير عمير بنفسه من بعيد لبعيد ولا يركن على الغلمان والعبيد، وما زالوا سائرين لا يطرقهم طارق ولا يسرقهم سارق وهم آمنون مطمئنون بالأمير عمير كأنهم في جيوش وعسكر كأنهم أبو الفوارس عنتر حتى وصلوا إلى بغداد دار السلام بسلام.

بغداد بغداد يا بغداد كم كرم

قد فاضَ عنكِ وكم ربيت أشبالًا

وقد أتاكِ كريم خائفًا وجلًا

يرجو النجاة عسى توليه إقبالًا

قال الراوي: ولما وصل القوم إلى بغداد هنأَ بعضهم البعض على السلامة والنجاة من تلك الأرض، وقال السيد

أبو الحسن للأمير عمير: يا ولدي نحن كلنا طلقاؤك وجميعنا عتقاؤك، فاقصد جبري واجبر كسري، واقبل إشارتي وانزل في ضيافتي أخدمك بنفسي وأقيك بروحي وحسي، وإني رجل ذو غنى وثروة واسعة ودورنا كبيرة واسعة ولا يثقل علينا من أمرك شيء مهما أقمت، وأراك تميل إلى الخلوة والانفراد عن العباد وسترى عندنا من ذلك ما يرضيك ويسترك ويألفه ولا يأنفه طبعك، فقبل الأمير عمير ضيافة السيد أبي الحسن بن كريم وقال: لا يأبى الكرامة إلّا اللئيم. ففرح السيد أبو الحسن وأنزله معه في داره وأدناه من جواره وأعد له مكانًا لطيفًا، ودوره ظريفة في أتم تنظيم بين البستان والحريم لها بابان: باب من الحريم وباب من البستان، وأنزله بها وخصص لخدمته جارية في غاية البها، ولم ينظر السيد أبو الحسن شيئًا من أمره حتى استقر الأمير عمير وانتظمت أحواله واستراح باله.

قد يكرم الحر الكريم وإن نأت

أيام دولته بمحنة دهره

فالشمس لم يمحُ الكسوف بهاءها

والبدر لم يزرِ الخسوف بقدره

قال الراوي: وشدّد الأمير عمير على السيد أبي الحسن وأكد عليه أن لا يأتي في سيرته بما يحوج إلى رؤيته فإنه لا يجد الاستئناس بالناس، فأجاب وأسقط من حديثه ذكره وأخفى بغاية الجهد أمره، وأقبل على أشغاله وأعماله وتفقد ضياعه وعماله ومحاسبة التجارة وكل إدارة، وانشغل بماله السيد أبو الحسن بن كريم وأحال خدمة الأمير عمير على الحريم،

واستقر الأمير عمير في خلوته ونسي أيام دولته وأنس بوحدته وعبادته وحمد الله وأثنى عليه وقال في نفسه: لئن فاتني ملك الدنيا فلا يفوتني ملك الآخرة إن شاء الله. وجَدّ في العبادة واقتفاء أثر السعادة.

إذا ما كنت ذا عقل ورأي

فحاول نول أسباب السعادة

فإما أن تقود زمام ملك

تدبره وإلا فالعبادة

قال الراوي: وكانت الجارية التي تخصصت لخدمة الأمير عمير أخص جواري السيدة نعاس وقد اختارتها لنباهتها ودرايتها عساها تكشف شيئًا من أخباره أو تطلع على بعض أسراره، وكان اسمها خديجة، فكانت تكنس المكان، وتجيد ترتيبه وتنظيمه، وتغسل الأواني وتجلي الصواني، وتقدم الطعام إليه فإذا أكل صبت الماء على يديه، ورفعت المائدة بخفة زائدة وهو مع ذلك كله لا ينظر إليها ولا تقع يده عليها، بل صارفٌ نظره بالكلية ومقبل على عبادته المرضية، فكانت السيدة نعاس تسألها في كل يوم عن حاله وما تراه من أعماله، فتخبرها خديجة بما تشاهد وتعاين من عفته ونزاهته وإقباله على عبادته مع ما فيه من الجمال البارع والحسن الرائع والهيبة والوقار وصلاح الأبرار، فانشغل به سر السيدة نعاس وعلمت أنه ليس كآحاد الناس وأنه فريد العصر وجليل القدر.

في دولة الحسن كم فاقت محاسنه

أهل الجمال مع التقوى مع الدين

وعند هول اللقا ليث يلاذ به

وفي الحياء حياء الخـرّد العين

قال الراوي: وتمكن من السيدة نعاس حب الأمير عمير وأقلقها الفكر وأعياها الصبر، فشكت حالها لأمها وقالت لها: يا أماه إن لم أخدم هذا الأمير بنفسي وإلا سكنت رمسي. فأدركت أنها أحبته فعذرتها في حبه لأنه هو الذي أنقذها من السبي وخلصها من الأسر، فضلًا عما هو عليه من الحسن والجمال والفضل والكمال ومحاسن الخصال، فقالت لها: يا ابنتي أنت معذورة في هواك لهذا الإنسان فإنه وحيد الزمان وفريد العصر والأوان، فاخدميه ما شئت أن تخدميه فلا نذمك ولا نلومك فيه، وسأكون معك معينة ولسرك أمينة إن شاء الله، ففرحت السيدة نعاس بموافقة أمها وانجلى عنها بعض همها، وسألت خديجة عن حالها مع الأمير وكيف عادتها في خدمتها، فقالت لها خديجة: والله يا مولاتي ما رأى لي من ذات ولا عرف لي من صفات، ولو دخلت عليه عريانة ما رآني لأنه في عالم ونحن في عالم ثاني. وعرّفتها بعادتها في خدمتها.

ولما كان الصباح دخلت السيدة نعاس لخدمة الأمير عمير بنفسها فلما صارت داخل المكان سمعته يقرأ القرآن بصوت حسن ذي شجن فأطربها وأشجاها وزاد في هواها، وأخذت في الكنس وتنظيم المحل وإصلاح كل شيء مخل، فلما أحس بها أسر وغض النظر ففعلت في الخدمة حسب العادة واعتنت كخديجة وزيادة، وهو لا يرمي نحوها طرفًا ولا يبدي

إليها حرفًا صارف القلب عن كل حاضر كأنه في عالم آخر، فتيمتها هذه الأوصاف وشوقتها إلى الائتلاف وأصبحت أسيرة الوجد والغرام بذاك الأمير الهمام.

إن الجمال مع المروءة والتقى

ومحاسن الأخلاق في هذه الدنــا

يستعبد الأحرار يا أهل الهوى

عشق العفاف أشد من عشق الخنا

قال الراوي: وزاد على السيدة نعاس الحال، فشكت همها لأمها فقالت لها: يا ابنتي قد أهمني شأنك، ولكن لي خليلة جليلة سأرسل إليها وأعلمها بخبرك لتنظر في أمرك فإنها امرأة ذكية عاقلة نجيبة ذات أعمال مجيبة وأفعال عجيبة تُدعى ليلى وكنيتها أم حكيم وهي من بغداد وقومها بنو تميم.

مشهورة بذكاء في عشيرتها

العقل والفضل والعرفان قد جمعت

تنال بالرأي والتدبير حاجتها

كأنها السحر إن قالت وإن صنعت

قال الراوي: فأرسلت أم السيدة نعاس لها فحضرت وقد فرحت لما بلغها حضورهم من خراسان، فلما سلمت وجلست وتباثثن الأشواق وتجلى عليهنَّ الأنس بنفح طيب التلاق بعد الفراق، كشفت لها أم السيدة نعاس عن حقيقة القصة وأمّلت من رأيها كشف تلك الغصة، فلما سمعت أم

حكيم هذا النبأ العظيم استغرقت في الفكر ساعة كأنها لم تكن معهم في القاعة، ثم انتبهت وقالت لأم السيدة نعاس: أموجود عندكم هذا الإنسان إلى حد الآن؟ فقالت لها: نعم وحق من قضى وحكم. فقالت: نِعم الغنيمة لهذه الكريمة وسأروح الليلة إلى بيتي وأعود في غد وبعدها سترين ما يسرك إن شاء الله، واستأذنت وانصرفت.

وفي الغد حضرت واختلت بالسيدة نعاس وأعطتها حبة في قدر الحمصة، وقالت: متى كنت في المكان الذي هو جالس فيه فابتلعي هذه الحبة ولا تنزعجي منها، ومتى فعلت ذلك يكون خير بعدها إن شاء الله، فأخذتها منها وكانت مدبرة من مرقد ثقيل، فلما صارت في المكان ابتلعت تلك الحبة فما استقرت في جوفها حتى سقطت على الأرض لا تدري الطول من العرض، فانزعج الأمير عمير ونهض يتداركها فلم يلحقها إلا وهي كشبح مطروح أو جسم بلا روح، فتكدر وتأسف وساءَه هذا التصادف وإن لم يكن تعارف وصار يقلبها لجنبها وهي لا حراك بها، ثم رفعها إلى السرير في ثيابها الحرير، وأقام سهرانًا عليها يرعاها من بعيد لا يمس لها جلدًا ولا يجس لها نهدًا.

كريم ليس يهتك قطُّ عرضًا

ولو خلت المليحة بالمكانِ

إذا كان العفاف لباس قومٍ

فسيان التباعد والتداني

قال الراوي: وعند الصباح دخلت أمة سوداء: فقال لها يا هذه إن فتاتكم أصابها صرع أو شيء مثل الصرع وهي مغشي عليها لا تدري صوابًا ولا تبدي جوابًا، فانظريها واعلمي مواليها ليستحضروا لها طبيبًا أو طبيبة فإنه لم يزل نفسها يتردد وحرارتها تتجدد. فدخلت الأمة ونظرت إليها ثم إنها خرجت وذهبت من حيث أتت، وغابت لحظة كشيء بيضة أو فكرة أديب أو جلسة خطيب، وحضرت ومعها أم حكيم فسلمت على الأمير فرد عليها السلام، فنظرت إلى الفتاة وسألته عن حالها، فقال لا أعلم غير أني لم أشعر إلا وهي مطروحة على الأرض على هذه الحالة فرفعتها إلى السرير ولم تزل بحالتها للآن. فأمرت بإحضار ماء ساخن فأحضروه، فوضعت رجلي الجارية فيه وصارت هي والأمة السوداء يدلكان رجليها وساقيها، ثم أعطتها مقيًا فألقت ما في جوفها جميعه وأفاقت من غشيتها، ولما أفاقت قالت: أين أنا؟ فقالت لها الطبيبة: أنتِ عند مولاكِ الذي بات يرعاك فلا تنزعجي فقد زال البأس إن شاء الله. فقالت: وما الذي أصابني يا طبيبتي؟ قالت: نوع من الصرع شديد يقبض على القلب حتى لا يعي المصاب به شيئًا. قالت: ومن أي شيء ينتج هذا الداء؟ قالت: من فكرة قاسية تمر على المخ فيهرب الدم على القلب فيقبض عليه، وإن لم يُتدارك أمره وإلّا أهلك صاحبه. فقالت: يا طبيبتي إذا كان الأمر كما تذكرينه فشفائي من هذا الداء عزيز. فقالت لها الطبيبة: وكيف ذلك؟ فقالت: لأن الذي مر بفكري وقت أن صُرعت هو أنني قد ألفت خدمة مولاي الأمير واسترحت عليها وتمنيت أن لا أفارق خدمته إلى آخر عمري قانعة بأن أراه في مصلاه بالعين لا غير، وقد عاندني في ذلك الزمان وأبى أن يسمح لي بأمنيتي فإن مولاتي عزمت

على بيعي لبعض أحبابها الخراسانيين، ولما علمت ذلك العزم أثر عندي غاية التأثير حتى صادفني ما صادفني عند فكرتي في هذا الأمر، وهذا كله لحقني قبل أن أرى الذي رأيته من الحنو والشفقة وذاك الانعطاف، فكيف الآن وقد زادت الرغبة فيه أضعاف الأضعاف فلا خلاص من هذا المصاب حتى أسكن التراب.

لقد أصبحت في وجدٍ شديدٍ

ومالك غير أن سرحت طرفًا

فماذا بعد حكم البين تلقى

وقد آنست من مولاك عطفًا

قال الراوي: وأقبلت أم حكيم على الأمير وقالت له: يا ولدي ما يمنعك عن مشترى هذه الجارية الراغبة فيك وتكسب أجرها، وإني أرى أن مواليها لا يبخلون عليك بها ولا بألف مثلها، فإن أود ما عليهم رضاك ويتمنون لك ذاك. فقال: يا هذه إني رجل غريب وأجهل مستقبلي ولا يليق بي إلّا أن أكون مخففًا، ومتى استقر أمري نظرت في أمرها إن شاء الله، ثم إنه طيّب خاطرهما بكلام لطيف وأخرج خاتمه من إصبعه وأعطاه للجارية مكافأة على ما أظهرته من شدة الرغبة فيه، وأعطى الطبيبة الألف دينار التي استصحبها من المغارة واعتذر إليها، ثم تركهما وشأنهما وأقبل هو على شأنه.

فانصرفتا إلى داخل الحريم، ولما دخلت أم حكيم أخذت الخاتم من السيدة نعاس وأعطته لأمها وعلمتها ما تقول وما تصنع مع زوجها السيد أبي الحسن بن كريم، فلما جلست

معه ليلًا قالت له: إنه في هذا اليوم قد حضرت امرأة تاجرة في الجواهر ومعها خاتم أعجبني وأردت أن أشتريه، فطلبت مني فيه مائة دينار فاستكثرت هذه القيمة، وقلت لها: سأكشف عليه عند أرباب الخبرة ومتى كان يستحق ذلك أخذته ودفعت ثمنه إليك كما تقولين. وناولته الخاتم فأخذه وتأمله فانبهر منه وقال: إن هذا خاتم ولا كالخواتم ولكن سأحقق نظري عند ذوي الخبرة لئلا يكون هذا الذي أراه فيه شيءٌ من التمويه.

ولما كان في الصباح ركب دابته السيد أبو الحسن وتوجه إلى سوق الجواهر وقصد رئيس الطائفة، وعرَّفه أن عنده خاتمًا من ذخائرهم القديمة وقصد أن يبيعه ويشتري بثمنه جواهر أخرى، وغرضه الآن أن يسومه وينظر ماذا يساوي. فأخذ منه الخاتم وتأمل فيه، ثم قال: يا سيدي هذا الخاتم فصه من الأحجار الكريمة ذوات القدر والقيمة وأقل ما يساوي مائة ألف دينار، ولكن سأبعث إلى شيوخ الكار ذوي المعرفة والدراية التامة لتحقيق نظري.

فأرسل وأحضرهم وعرض عليهم الخاتم، وأراهم قصد السيد من نحو مبيعه ومشترى جواهر أخرى بثمنه، فتأملوه جميعًا وتحققوه وقالوا: هذا الخاتم أقل ما يساوي مائة ألف دينار عند كساد الأسعار، وهذا من متاع الملوك لا يباع ولا يشترى في الأسواق، وما نجد بيننا من عنده هذه القيمة حتى يدفعها في هذه الجوهرة الكريمة. ثم انصرفوا، وأخذ الرئيس الخاتم وأعطاه للسيد أبي الحسن وقال له: قد سمعت ما قاله ذوو الدراية وأهل الخبرة فهذا الخاتم من أنفس المتاع والأحسن أن لا يباع. فاستحسن السيد هذا الكلام وأخذ الخاتم وركب دابته وعاد إلى داره، وأحضر زوجته وقال لها:

اصدقيني ما شأن هذا الخاتم فإنه يساوي قدر ما طلبته صاحبته كما تزعمين ألف مرة، وكانت أم حكيم قد لقنتها ما تقول له إذا قال لها ذلك فقالت له: هل عرفت قدر هذا الخاتم؟ قال: نعم. قالت: فلمن يليق أن يكون؟ قال: لا يليق أن يكون إلا لملك كريم أو لرجل له شأن عظيم. قالت: أيليق أن يكون لجندي من الأجناد أو لبعض القواد؟ قال: لا. فقالت: هذا خاتم الأمير عمير نزيلنا وضيفنا. فقال لها: وكيف وصل إليك؟ فأخبرته برغبة السيدة نعاس في خدمة ذاك الأمير بنفسها لما عندها من الميل إليه حيث كانت نجاتها من السبي على يديه، وكانت تتردد على مكانه لخدمته بدل خديجة في بعض الأحيان، وهو لا يفرق بين هذه وتلك لغض طرفه عن الجميع، فذات يوم لحقها صرع وهي بذاك المكان، وحدثته بباقي الحديث مع التلطيف وبعض التصريف، وأخبرته كيف خلع الخاتم من إصبعه وأعطاها إياه مكافأة على رغبتها فيه وتطييبًا لخاطرها، ولما حضرت بالخاتم ونظرته عرفت قدره وعلمت أن صاحبه ذو شأن عظيم، فأردت أن تعرفه أنت أيضًا بالتحقيق فقلت لك ما قلت حتى اتضح لك، وبأن نفاسته وغلو قيمته لتعرف قدر من اقتناه وسمح به فأعطاه.

إن رمت تدري قدر أرباب الندا

فاسأل رواة ذوي الندا عن حاتمِ

واحص الذي أعطاه من توق العلا

وانظر لمن أعطاكها في خاتم

قال الراوي: فقال السيد أبو الحسن قــد عرفنا قدر الخاتم وصاحبه، والآن فما عندك وما الذي ترينه وتريدينه؟ فقالت له: قد علمت ما لصاحب هذا الخاتم من الهمم العلية والأخلاق السنية والجمال والكمال والعفة والأمانة وما فاق بهِ الخلق خلقًا وخُلقًا وشجاعة وبراعة، هذا فضلًا عما أنتجه لنا هذا الخاتم من الدلالة على أن صاحبه ملك أو رجل عظيم الشأن، فهذا أول إنسان في هذا العصر والأوان ومثل هذا تميل له النفوس، وتتمنى كل فتاة أن يكون لها عروس، وأرى من الواجب علينا اغتنام هذه الغنيمة لابنتنا الكريمة قبل أن يتعسر الحصول ويعز الوصول. فقال لها: هذا غاية ما يرام ويا حبذا إن صحت الأحلام، ولكن كيف لنا بذلك وقد عرضت عليه هذا الأمر وأقل وأكثر فما كان يقبل، بل هو معرض كل الإعراض عن الدنيا ولذاتها. فقالت له: إذا سمعت مني وأخذت عني وصنعت ما أقوله لك من العمل بلغنا السعادة والأمل. فقال لها: قولي ما شئت فإني لا أخالف أمرك ولا أخرج عن رأيك. فقالت له: تخرج إلى الصحراء وتبحث على قصر وبستان يكون بعيدًا عن العمران منقطعًا عن السكان، فتشتريه وإذا كان يلزم له ترميم رممه أو تعمير عمره، وهَيِّئه وافرشه وادخر فيه ما تحتاج إليه الملوك من طعام وشراب وأدوات، ثم سلم المكان لأحد الخصيان الشجعان ذوي الأمانة والرزانة، ومتى أتممت هذا العمل فعرفني حتى أقول لك ما تصنع بعدها.

فامتثل أمرها وركب من الغد وطلع إلى الصحراء وصار يبحث ويتجسس حتى عثر بقصر ظريف لهُ بستان لطيف وهو منفرد في تلك الوديان والقيعان بعيد عن السكان والعمران.

مكان يعجب الفتـاك مأوى

ويعجب معشر النساك خَلْوَه

فللفتاك في الفلوات أمنٌ

وللنساك في الخلوات جلوه

قال الراوي: فسأل السيد أبو الحسن بعض الرعاة عن أصحاب ذاك القصر، فقالوا له: هذا قصر أولاد علوان الصياد، وكان أبوهم يسكنه ولما مات لم تقدر أولاده أن تسكن فيه لانفراده وبعده عن العمران، ولم يجدوا من يشتريه أو يسكن فيه، فسأل عن مكانهم فدلوه فنزل إلى المدينة واجتمع بأولاد علوان واشترى منهم القصر بألف دينار، وأمر وكيله بتعمير القصر وتجهيزه ونقل اللوازم إليه، ففي الحال جرى العمل وحضر العمال والصناع وجهزوه وهيأوه ونقلت إليه اللوازم والأدوات.

ولما تم ذلك كله حسب ما عرفت أم السيدة نعاس أحضر خصيًّا له نشيطًا أمينًا شجاعًا ذا إقدام وثبات، فسلمه ذلك القصر وأوصاه. ثم أعلم زوجته السيد أبو الحسن بما تم وصار حسب ما نبهت عليه وأمرت به وكانت هي تلقنت من أم حكيم ما تقوله له بعد تجهيز القصر. فقالت له: إذا ذهبت إلى زيارة الأمير عمير حسب عادتك فحسن له ركوبه معك إلى الفلاء والخلاء لترويح نفسه ونشاطه، فإذا أجابك إلى ذلك، فاركب معه وجولا في تلك القيعان والوديان، ثم ارجعا إلى ذلك القصر للغداء والقيلولة، فإذا رأى ذلك المكان فإنه سيعجبه فيسألك عنه فأظهر له أنه عطلان فارغ ولا انتفاع به إلّا بقدر تلك البرهة التي تأوون إليه فيها أحيانًا، فإذا سألك

إقامته فيه فامتنع قليلًا احتجاجًا ببعده وانقطاعه وعدم الأمان، فإذا ألح وشدد وأظهر لك الرغبة الزائدة في ذاك الانفراد والانقطاع فأجبه إلى ذلك ودعه يقيم فيه، وأوص فيروز بخدمته والاعتناء بشأنه.

فامتثل أمرها، ولما كان يوم الجمعة توجه إلى الأمير عمير لزيارته حسب عادته، فلما جلس واستأنس سأله عن خاطره وكيف صحته فحمد الله وأثنى عليه. ثم إن السيد أبا الحسن قال له: ألا يستحسن مولاي الأمير أن يركب معي يومًا ونذهب إلى الخلاء والفلاة وندور في الصحراء ليتجدد نشاطه ويزيد انبساطه برؤية القيعان والوديان ومراتع الغزلان؟ فقال له الأمير عمير: لا بأس من ذلك يا سيدي، وإن شاء الله يكون باكرًا إن سمح خاطركم. ففرح السيد بذلك وقال له: إن شاء الله أحضر إليك باكرًا ونركب من هنا معًا. ثم تحدثا برهة وانصرف السيد إلى أشغاله، وفي ثاني يوم حضر إلى الأمير عمير فركب وطلع معه إلى الصحراء، فجالوا في تلك الوديان والقيعان إلى وقت الزوال ومالوا إلى ناحية القصر، وكان فيروز قد هيأ لهم نفيس الطعام وأعد لهم المكان أتمَّ استعداد، فلما دخلوا القصر استقبلهم فيروز وربط دوابهم وقدَّم لهم الطعام فأكلوا وشربوا وانشرحوا، وأَنِس الأمير عمير من ذاك المكان وأعجبه اعتزاله عن العمران وانفراده في تلك الوديان، فسأل السيد عن القصر ولمن هو. فقال له: هذا من أملاكي إلا أنه ليس منه انتفاع لانقطاعه وانفراده ولا ننتفع منه إلّا بساعة مثل هذه ثم يغلق ويترك مهملًا. فقال له الأمير عمير: لو كنت تسمح لي أن أقيم في هذا المكان لكان يسرني ذلك غاية السرور. فقال له: السيد وكيف يكون ذلك وهذا المكان منقطع

وغير مأمون ويخشى على من يقيم فيه شر الأشرار. فقال له الأمير: أما انقطاعه وانفراده فإن هذا هو المحسّن له عندي إذ ذلك غاية رغبتي، أما شر الأشرار فلا أفكر به، وإنما الأمر تحت رضاك لا غير. فقال السيد: أما أنا فكل ما أملكه فهو ملك يديك ولا أمنّ به عليك، فأقم حيث تريد ونحن الكل لك عبيد.

فشكره الأمير عمير وأثنى عليه وفرح بالقصر وذاك المكان المنفرد في الخلوات والفلوات، ولما انقضى اليوم انصرف السيد، وأقام الأمير عمير في القصر وأقام فيروز لخدمته، ولما كان المساء قدم له فيروز الطعام فأكل وشرب ثم توضأ وقرأ أوراده وصلى ركعات، وبات تلك الليلة في أتم انشراح وارتياح إلى الصباح.

إذا ما أسعد الخلاق عبدًا

تخلقت البواعث والدواعي

وسخرت العقول له لتسعى

ونال الخير من تلك المساعي

قال الراوي: وأقام الأمير عمير بذاك القصر منشرح الصدر، وصار كل يوم يركب جواده ويطلع إلى الصحراء ويجول في تلك الأودية للصيد والقنص واغتنام الفرص، وزاد نشاطه ودام انبساطه وتسلّى عن ملكه ودولته وعزّهِ وسطوته بذاك المكان وصيد الغزلان.

وما يلهي الملوك ذوي المعالي

من الدنيا سوى صيد الظباء

تراهم في القصور بـدور تـمّ

وأُسْدًا ضاريات في الفلاء

قال الراوي: أما السيد أبو الحسن فإنه بعد انصرافه إلى داره أخبر زوجته بما جرى وتجدد من رغبة الأمير عمير في إقامته بذاك القصر منفردًا مع فيروز لا غير. فقالت له: دعه الآن وبعد أيام أخبرك بما تجريه إن شاء الله. وبعد مضي عشرة أيام لقنتها أم حكيم ما تقوله لزوجها وما يجريه فلقنته ذلك ليلًا، فلما كان عند الصباح ركب السيد أبو الحسن دابته وتوجه إلى قصر الصحراء واجتمع بالأمير عمير، وبعد السلام والسؤال عن خاطره قال له: يا مولاي عندي حديث أريد أن أعرضه عليك فإن سمحت بقبوله زدتني امتنانًا وكان ذلك جميلًا منك. فقال له: يا سيدي قل ما شئت فكل ما قدرت عليه فهو مبذول وكلما أمرت به فهو مقبول. فقال السيد: إن لزوجتي جارية عزيزة قد ربتها صغيرة، وقد كان سألها فيها بعض الأحباب من الخراسانيين الذين كنا عندهم ومن لهم عندنا خاطر كبير، فأجابتهم إلى ما سألوه وعزمت على بيعها لهم، فلما علمت الجارية بهذا العزم غمّها ذلك واعتراها صرع لازمها ولم يكد يفارقها، وقد أعجز الأطباء علاجه، فوصفوا لنا أن تقيم في الخلاء والصحراء لاستنشاق الهواء النقي أيامًا عسى تتغير أفكارها وتتلطف أكدارها وتثمر فيها المعالجة، وقد بحثنا على مكان يوافق هذا الغرض فلم نجد أوفق من هذا المكان إن سمحت بالقبول وإن لم تسمح بحثنا على خلافه

ودققنا في البحث فلا بد أن نجد شيئًا يليق. فلما سمع الأمير عمير خبر الجارية عرف أنها تلك الجارية التب جرى لها ما جرى عن يده فقال له: أحضرها مع طبيبتها وجارية تخدمها وأنا أحرسهم وأرعاهم فلا يصل إليهم سوءٌ إن شاء الله.

فشكره السيد على قبوله ذلك ودعا له وأثنى عليه وانصرف، وأعلم زوجته بما صار، فلما كان وقت الفجر أركب السيدة نعاس وأم حكيم وخديجة والأمة السوداء وأخذهم وأوصلهم إلى القصر، وكان فيروز قد أعد لهم مكانًا معتزلًا داخل القصر بعيدًا عن المكان الذي ينزله الأمير عمير إلّا أن له بابًا موصلًا إليه، فأنزلهم في ذلك المكان وتركهم وانصرف، فانشرح صدر السيدة نعاس من رؤية الخلاء والفلاء خصوصًا مع قرب الحبيب ومهارة الطبيب.

قرب المحب من الحبيب دواء

فيه وإن عزّ الوصال شفاء

والصب ترضيه الأماني في الهوى

والبعد يأسٌ والدنو رجاء

قال الراوي: وصارت السيدة نعاس تتفرج من شبابيك القصر على البستان وأزهاره والوادي وأطياره وتلك الآكام والربى ومراتع الغزلان والظبا، وعلى الأمير عمير وهو يطارد الغزلان في تلك القيعان، فسُرَّت بذلك وفرحت وطابت

نفسها وانشرحت، وقالت: يا طبيبتي أجد نشاطًا وقد زال عني الوسواس وتجدد عندي الاستئناس فهل نفوز بالمقصود وإلّا كما حضرنا نعود؟ فقالت لها: يا بنتي طيبي نفسًا وقرّي عينًا فستبلغين المراد وفوق المراد إن شاء الله.

فطابت نفسها وزاد أنسها وأقامت على ذلك. ففي ذات ليلة من الليالي بينما الأمير عمير في مصلاه بعد العشاء إذ دخل عليه فيروز وقال له: يا مولاي إن الطبيبة بالباب تستأذن أن تقابلك لأمر ضروري، فأذن لها فلما دخلت سلمت عليه وحيته بتحية التعظيم والإجلال، فسلم عليها وبش في وجهها وأظهر مزيد الاعتناء بشأنها وأكرمها واحترمها وسألها عن حاجتها، فقالت له: يا مولاي، إن العليلة التي عندنا قد استفحل داؤها ولا يوافق لها من الغذاء إلا أكباد الظباء، فإن سمح مولاي بأن يستحضر لنا شيئًا من الذي يصيده بالنهار كان له الأجر والثواب. فقال لها: هذا شيءٌ أيسرُ ما يكون وسيأتيك كثير من تلك الأكباد إن شاء الله. ثم تحدثت معه قليلًا حتى استأنس بها ومال قلبه إليها وارتاح بحديثها، ثم قامت وقام وانصرفت لينام.

وعند الصباح ركب الأمير عمير جواده وطلع للصيد والقنص كعادته، وفي المساء حضر ومعه شيء كثير من الظباء فأعطاه لفيروز وقال له سلمه إلى الطبيبة، فأخذه فيروز وأوصله إليها. وبعد العشاء حضرت أم حكيم إلى الأمير عمير وشكرته على همته وما أبداه من حسن عنايته، فهش في وجهها وبش وأكرمها واحترمها وأنس بها، وسألها عن العليلة فأخبرته أن حالتها تحسنت عن ذي قبل، ففرح وسُرَّ بذلك، وتحدثا برهة وانصرفت أم حكيم ونام الأمير. وهكذا كل ليلة

صارت تجالسه وتسامره وتؤانسه وتحادثه وتدخل معه في كل فن وكل باب حتى زاد أنسه بها واطلع على فضلها وعقلها، وعَظُم قدرها في عينيه وكَبر شأنها لديه وملكت قلبه لفطنتها وذكائها وصنعتها ودهائها واستأنس بها أتم استئناس حتى كأنها له من أقرب الناس.

إذا مـا رمت مـن أحد مرامًا

فكبرُ عندهُ في فضل نفسك

ولا تنفخ لـه أبدًا كلامًا

بقصدك قبل أن يصبو لأنسك

قال الراوي: وفي ليلةٍ من الليالي حضر الأمير عمير من الصيد مساءً وطلع إلى مكانه فأكل وشرب وتوضأ وصلى وقرأ وجلس ينظر أم حكيم للمحادثة والمسامرة حسب العادة، فتأخرت عن الحضور وهو ينتظر إلى نصف الليل فأقلقه ذلك التأخر وانشغل باله، وبينما هو كذلك وإذا بها داخلةٌ عليه وهي كئيبة حزينة منزعجة، فقال لها: ما شأنك وما وراءك؟ فقالت: يا مولاي، إن الجارية العليلة أمست في خطر هذه الليلة وقد أعيتني الحيلة في أمرها. فانزعج الأمير من ذلك واغتم وتأسف، ثم قال لها: أما بقي عندكِ شيءٌ لتداركيها به؟ فقالت: يا مولاي، إن الطبيب إذا عُرض عليه داء صعب فلا بد له من طبيب آخر يكون معه للتمكن من تصحيح وتشخيص الداء حتى يمكن بذلك إجراء عملية العلاج على الوجه الصحيح لأن اتفاق رأيين ونظرين أقرب للصواب من الانفراد، والآن فإني وحيدة والوقت ليلٌ لا يمكنني استحضار طبيب آخر، ولكن أرى أنني لو فهمتك حقيقة هذا الداء وأسبابه وأعراضه

وأمراضه حتى أنك تدريه وتعرف ظاهره وخافيه كمن درس ومارس فيه، ثم بعدها نتروى فبمساعدتك لا نحرم من الاهتداء للصواب إن شاء الله. فقال لها: افعلي ما بدا لك فإني طوع إشارتكِ عسى أن تنقذي هذه المسكينة من تلك الآلام والأسقام، فإني واثق بحسن اختبارك وسلامة أفكارك. فقالت له: قم معي إلى المريضة حتى أشخص لك الداء وأشرحه ثم تنظر في طريقة العلاج المفيد حسب ما يظهر لنا من دقة البحث والتشخيص، فأجابها وقام معها فأدخلته من الباب الموصل إلى ذاك المكان، فلما صار فيه نظر إلى شموع ومصابيح وزينة بديعة والمكان يكاد يرقص من فرط الإتقان، فتعجب الأمير عمير غاية العجب مما عاين وشاهد وسألها عن السبب في هذا الاحتفال الكبير. فقالت: يا مولاي، إن عادة هذه البلاد إذا ماتت عندهم فتاة في أوان شبابها وكانت عزيزة عندهم يصنعون لها هذا الاحتفال كل إنسان بحسب قدرهِ زعمًا أنها تزف عروسًا إلى عالم الأرواح، ولكون هذه الجارية عزيزةً عند مولاتها فقد أمرتني أن أجري ذاك الاحتفال إن هي ماتت، وفي هذه الليلة لما رأيت تأخر الجارية وأنها ربما ماتت في هذه الليلة فعلت ذلك، وقلت إن ماتت فقد وفينا حقها وإن شفيت كان ذلك سرورًا وابتهاجًا لسلامتها، ثم أدخلته إلى غرفة في غاية الإتقان كأنها من غرف الجنان وفيها الشموع تلمع والأنوار تسطع حتى كأنه النهار من كثرة الأنوار، وقد تزينت بنفيس الفرش وبديع النقش من الأرض إلى العرش حتى صار منظرها يدهش الأبصار ويبهر النظار، وفي وسطها سرير من الذهب الأحمر المرصع بالجوهر وفراش ذاك السرير من أنفس الحرير، وعليه فتاة مطروحة كأنها البدر وعليها من الخلل والحلي ما يعجز أبناء العصر ويقوم بخراج مصر، وهي مستلقية

في الفراش على ظهرها لا تعي إدراكًا ولا تبدي حراكًا وقد انكشف ساقاها وبان معصماها كأنها البلور أو خلقت من نور، فلما شاهد الأمير عمير هذا المنظر بهت وتحير ولكنه تجلد وتصبر فأجلسته أم حكيم على كرسي بجانب السرير، فجلس وجعل يتأمل فيرى حسنًا مريعًا وجمالًا بديعًا وجسمًا ناعمًا ورسمًا متقنًا، فصار الأمير عمير يسبح الصانع ويمجده الذي خلق فأتقن وصوّر فأحسن.

كلٌّ يميل إلى الجمال إذا بدا

ويظل منجذب الفؤاد بقوّته

فأخو التقى يرعى الجمال مسبحًا

وأخو الشقا يرعى الجمال بشهوتهِ

قال الراوي: وتقدمت أم حكيم إلى السرير وأخذت تمسح وجه الجارية وصدرها وترفع يديها وترسلهما وتقلبهما يمينًا وشمالًا وتعرض إتقان رسمها ومحاسن جسمها على نظر الأمير حتى أثبتتها في خياله، ثم قالت: يا مولاي، إن ميزان حياة الإنسان في ضربان الشريان فالشاب يضرب نبضه من تسعين إلى مائة مرة في الدقيقة وإن زاد أو نقص فيكون ذلك لعلة مرضيّة، وأريد الآن عد نبضها لكني امرأة كبيرة قد ضعف إحساسي وأنت شاب وإحساسك أقوى فأمسك يدها وجس محل النبض واضغط عليه حتى تتمكن تحقيقه، وعدَّهُ فإن زاد عالجناها بتلطيفه وإن نقص عالجناها بما يقويه، وهذا العمل أول ما يجب علينا أن نجريه. فمسك محل النبض وضغط عليه وأراد أن يأخذ في العدد وإذا بالجارية قد أفاقت من غشيتها وانتبهت من سكنتها، ونهضت جالسة وقالت:

مَن ذا الذي مسَّ يدي فلقد أحسست ببردها في كبدي؟ فقالت طبيبتها: هذا مولاك الأمير قد حضر متوجعًا لمصابك معينًا على كشف ما بك، فانتبهي له وطمنيه وأقبلي عليه وكلميه، فتحركت تحرك الغصن الرطيب ونظرت إليه بعين الحبيب، وقالت أنا شاكرة أياديه وأواخره ومباديه فهو دائي ودوائي وبيده سعادتي وشقائي فإن شاء أشق وإن شاء أسعد وإن شاء أفنَ وإن شاء أوجد.

قلب المحب أسير لا فكاك له

ولو يعاني من التبريح أكبرهُ

والروح في قبضة المحبوب يصرفها

إن شاء أحياه أو إن شاء أقبره

قال الراوي: ولما رأى الأمير عمير ما أرى وسمع ما سمع أشكل عليه الأمر وغاص في بحار الفكر وظن الظنون واستراب الشؤون، ثم إنه تراجع وأظهر الجلد وطيب خاطرها بالكلام اللائق، بالحال والمقام واستأذن وانصرف إلى مكانه فشيعته أم حكيم ورجعت، وبات الأمير عمير طول ليلته يفتكر في الذي صار حتى طلع النهار، فركب للصيد كعادته وعاد في المساء فأكل وشرب وصلّى وقرأ وجلس ينتظر أم حكيم، فحضرت على حسب عادتها للمسامرة فلما جلست ودار بينهما الحديث واستأنست القلوب وصفت الأرواح وطابت النفوس وانشرحت الصدور، التفت الأمير عمير إلى أم حكيم وقال لها: يا أماه إني أرى في كمال نباهتك وعقلك وعظيم مروءتك وفضلك ما يوجب عليكِ أن تخلصي لي النصيحة ولا ترضي لي الفضيحة، فإني غريب الديار فاقد الأنصار وربما دلّك

ذكاؤك الوقاد أن همي عظيم وخطبي جسيم، وأرتك فراستك الغريبة أني لستُ بذي ريبة ولا قليل الهمة ولا عديم الذمة، فقد نظرت ما نظرت ليلة أمس مذ دعيت لأعود جارية مريضة في غمرات الموت فلم أجد إلا ذاك الابتهاج والكوكب الوهاج، فإذا كانت هذه جارية سقيمة فكيف بها مذ كانت سليمة، وكيف تكون أمةً أو جارية من أقل قطعة من حليها يفوق قرطي مارية، وإن ظني فيك لحسن فلا تكوني عونًا للزمن واصدقيني الخبر ولا تعرضيني للخطر، فإني أرى أن وراء الأكمة كمينًا وخلف الربوة دفينًا. فقالت: أقسم بكل يمين إني أحدثك حديث الصادق الأمين يا مولاي، إن التي خدمتك هذه المدة الطويلة ونظرتها وهي مطروحة عليلة لم تكن جارية من الجواري ولا سرّية من السراري، وإنما هي سيدة شريفة وحرّة عفيفة وهي السيدة نعاس بنت السيد أبي الحسن بن كريم التي من السبي أنقذتها ومن الأسر خلصتها، وقد أحبتك لا لدنس ولا لحرام ولكنّ حب الكرام في الكرام، وذلك لما نظرته من هممك ومعاليك وتلك السجايا التي فيك، وقد حلفت أن لا يخدمك إلا هي بنفسها وأن لا يرافق حسك غير حسّها، وأقامت تخدمك أيامًا على أنها جارية وأنهر العفاف بينكما جارية، وأبواها في صهرك راغبان ولقربك طالبان، ويمنعهما من عرض مطلوبهما هيبتك التي في قلبيهما، وما يريانه منك من الإعراض عن كل الأغراض، وأما أنا فلست بطبيبة ولا ممن تسوق إلى ريبة، ولكنني امرأة من بغداد اسمي ليلى وكنيتي أم حكيم وقومي بنو تميم، وأهلي من بيت أهلهُ مشهورون بالعلم والحكمة وخدموا الملوك زمانًا طويلًا بالرأي الصائب والفكر الثاقب، ولم يبق من هذا البيت إلا أنا وقد نشأت فقيرةً لا مال لي ولا رجال، لكنني لم أحرم من قوم يعرفون فضلي

ويرفعون قدري ويكرموننني ويحترمونني وينتفعون برأيي منهم أهل بيت السيد أبي الحسن بن كريم، ولما جرى لهم معك ما جرى وصار الذي صار أرسلوا لي وأعلموني بتلك الأخبار وكشفوا لي عن تلك الأسرار ووصفوا لي ما أنت عليه من الأخلاق الكريمة وما أتيت به من الأفعال العظيمة، فأردت أن أتحقق الخبر بالنظر فدبرت عملية ذاك الصرع حتى تيسر الجمع، فوجدت الخبر يفوق الخبر وليس الذي سمع كالذي نظر، وظهر لي من علو هممك ومزيد كرمك وما حزته من جميل السجايا وجليل المزايا أنك ملك وسلطان قد قضى عليك الوقت بالستر والكتمان، فعاهدت الله تعالى في سري على أن أخدمك بقية عمري، فأحكمت ما أحكمت ودبرت ما دبرت وساعدني الجد حتى وصلنا هذا الحد، وصارت السيدة في عرينك وتحت قبضة يمينك وقد عرضتها على نظرك لتخطبها بالعين وتعرفها بلا مين، وقد وهبها أبوها إليك بلا مَنّ بها عليك، فكان نظري إياها من باب السنة لا من قبيل الفتنة لأن الرضا من الجميع حصل، وأضعاف مهر المثل وصل وهو الخاتم الكريم ذو القدر العظيم، وما بقي من العلاج إلّا قولك قد قبلت الزواج فيتم الأمر ويرتاح السر، وقد عزم السيد أبو الحسن على أن يأتيك في الصباح لتحكيم عقدة النكاح، فإذا أتاك خاطبًا فلا ترده خائبًا وكافئه على إكرامه بنجاز مرامه، وبعدها متى رقت في نفسك وأنست بعرسك فاكشف لي النقاب وارفع الحجاب، ومتى عرفت الخبر أمعنت النظر وفعلت ما أراه ويكون خيرًا إن شاء الله، وسأبذل في خدمتك كل اجتهادي لأحيي ذكر آبائي وأجدادي الذين أحسنوا السلوك في خدمة الملوك، وأكون قد قضيت بقية عمري في فعل عظيم لملك كريم وحاشاك أن تأبى الصواب أو أن تغرني في الخطاب.

وأحسن ما يرى الإنسان يومًا

إذا ما كان من أهل الكمال

بأبواب الملوك له احترام

وإلا عابد فوق الجبالِ

قال الراوي: ولما سمع الأمير عمير هذا الكلام من أم حكيم استغرب الأمر واستغرق في الفكر، ثم قال لها: يا للعجب أكل هذا جرى وصار ودارت عليه الأفكار؟ قالت: نعم يا مولاي وهذا كله من فضل الله عليك فاشكره على ما أوصله إليك. فحمد الله وأثنى عليه وأكثر من الابتهال إليه، وقال لها: هذا هو اليقين وما بقي إلا الإذعان لحكمك وأمرك ولو حان الحين فاقضِ ما أنتِ قاضية فنفسي بحكمك راضية، ومتى شئت جلوت عليك الخبر وأظهرت لك العين والأثر. فقالت: أما وقد تفضلت وقبلت عبارتي ورضيت بإشارتي، فأول ما أشير به عليك قبول رجا السيد أبي الحسن بن كريم إذا أتاك في الصباح لعقد النكاح. فقال: أفعل إن شاء الله. فقامت وقبّلت يديه ورجليه وتوجهت بالدعاء إلى الله ودعت له بالظفر والنصر على أعدائه ثم استأذنت وانصرفت.

ولما دخلت على السيدة نعاس بشّرتها وهنّأتها فلاح عليها الصفا والبِشر وانشراح الصدر، ولما كان نصف الليل نزلت أم حكيم إلى فيروز وأعطته ورقةً مختومة وأعلمته أن يوصلها إلى أم السيدة نعاس هذه الليلة دون أن يشعر أحد، فركب ليلًا وأوصلها وعاد. فلما كان عند الصباح وإذا بالسيد أبي الحسن والقاضي والشهود في القصر عند الأمير فأعلم فيروز مولاه بحضورهم، فنزل إليهم واستقبلهم ورحّب بهم

وحيّاهم أتمّ تحية، فلما استقر المجلس قام السيد أبو الحسن واقفًا على الأقدام وقال: أُشهِد مولانا القاضي وأسيادنا الشهود أنني زوجت ابنتي السيدة نعاس من ولدي هذا الأمير عمير، فعارضه الأمير عندها وقال: عمر. فقال: عمر، وقد وصلني مهرها وقدره مائة ألف دينار معجلًا. فنظر القاضي للأمير فقال الأمير: قبلت نكاحها لنفسي. فانعقد العقد وشهدت الشهود وأطلقوا البخور والعود والند والعنبر وفرّقت العطايا وشربوا السكر، ثم قاموا وانصرفوا جميعًا.

وركب الأمير عمير على الصيد والقنص واغتنام الفرص، وفي المساء عاد إلى القصر وطلع إلى مكانه فاستقبلته أم حكيم وخديجة جارية السيدة نعاس، فوجد المكان كأنه النهار من كثرة الأنوار وقد تزين أتم زينة بالأقمشة النفيسة والجواهر الثمينة، فلما جلس في مكانه تقدم له الطعام على أتم نظام فأكل وشرب ثم توضأ وصلّى وقرأ ورده، وبعد قراءة الأوراد جلس مجلسه المعتاد فغابت أم حكيم برهة من الزمان وحضرت وبجانبها السيدة نعاس تخطر بقوامها الميّاس كأنها غصن الآس، وتختال في حلل العروس وتشرق إشراق الشموس، وقد صنع الحياء بوجهها والخد ما يصنع الربيع وقطره بالورد، فأدّت الفرض وقبّلت الأرض، ووقفت بسكينة ووقار وقد أخجلت بطلعتها الأقمار، فقام لها وجذبها وأجلسها وآنسها حتى ارتفع الخجل وزال الوجل، وأم حكيم واقفة على الأقدام تفعل ما يليق بالمقام، فلما تمّت الجلوة وطابت الخلوة أغلقت الأبواب وانسلَّت من السرداب، فقاما إلى السرير وغرقا في الحرير، ونادى منادي الصفا حيّ على الوصال وبلوغ الآمال.

لا شيء أحسن في الدنيا ولذّتها

من الوصال لأهل الحب والشغف

قليلة الوصل إن جاد الزمان بها

كليلة القدر في التفضيل والشرف

قال الراوي: ولما انجلى الظلام دخلا الحمام، وأتما الطهر وصليا الفجر، ثم خرج الأمير إلى مكانه وجلس وجلست بجانبه السيدة نعاس، ودخلت أم حكيم فهنّأتهما وباركت لهما، وجلست معهما برهة تسامرهما وتلاطفهما، وقامت لشأنها تهيّئ الأدوات وترتب الخدامات بقواعد خصوصية على الهيئة الملوكية، وقد أعدت الجارية السوداء للطباخة وكانت حاذقة ماهرة في إتقان الألوان، وجعلت خديجة للخدمة، وفيروز للجواد، وأجرتهم على نظام تام لا يخل ولا يمل، وبينما هي تلاحظ هذه الشؤون وإذا فيروز ألقى إليها ورقة مطوية مختومة فأخذتها واختلت بنفسها وقرأتها، وإذا هي من عند أم السيدة نعاس تستدعيها إليها فأخفت الورقة، ولما كان الليل سهرت عند الأمير والسيدة قليلًا وقاموا ليناموا، فنزلت إلى فيروز فأركبها وركب معها وأوصلها ليلًا إلى دار السيد أبي الحسن، فوجدت زوجته في الانتظار فلما نظرت أم حكيم سلمت عليها وقبلت رأسها، فهنّأتها أم حكيم ودعت لها ولبنتها، وبعد أن استقرَّت واستراحت قالت لها أم السيدة نعاس: أتدرين لم أرسلت إليك؟ قالت: لا. قالت: إنني عرفت السيد بحديثك جميعه وكشفت له خبرك إلى آخره الذي أوصلتنا به إلى هذا الصهر الكريم والفخر العظيم، فأقر بفضلك وشكرك على فعلك، وأمرني أن أرسل إليك ليراكِ ويشكرك ويطلب دعاك،

وهو منتظر سهران لم ينم حتى الآن، وقد أعلمني أن عنده خبرًا جديدًا وصل إليه ويريد أن يطلعك عليه، فشكرته على عنايته بها ودعت له ولها، وقامت معها إلى المكان الذي فيه السيد وإذا هو في الانتظار فلما رآها قام لها واحترمها وسلم عليها، وصار يتودد إليها ويذكر ما جرى وكان من ذلك الشأن ويشكر لها سعيها وفعلها، وهي تتنازل إليه وتكثر من الثناء عليه، ولما تمكنت الألفة وارتفعت الكلفة وزالت الحشمة وتنبهت الهمة، قال لها: هل علمتِ من هذا الأمير الذي صاهرناه؟ قالت: لا أشك في أنه ملك من ملوك العصر، لكن من هو لا أدري إلا أنه ملك كريم ذو شأن عظيم، وقد حكمت عليه الأقدار بالتغرب والاستتار.

إن الكريم إذا تستر جاهدًا

تبدو معالم فضله وتلوح

كالمسك إن أخفوه في أطباقه

لا بدّ يظهر عرفه ويفوح

قال الراوي: فقال السيد أبو الحسن هو كما ذكرت، ولكن هل تعرفين من هو؟ قالت: لا. قال: هذا الملك عمر شاه ملك خراسان بن الملك توران شاه الذي سلبه ملكه عمه تترخان وغدر به وحبسه في البرج، وكنا سمعنا أنهم قتلوه في البرج، ولكن كأن الله نجاه وكان المقتول خلافه، وإني أعرفه وأعرف قصته لأني كنت هناك أيام حكمه، ولكني لم أجتمع به لعدم جامعة التجار على الملوك إلا بأسباب ضرورية، وما تصادفنا إلّا أنني نظرته في المحافل والمواكب ولكن لتغيير زيه وليقيني بأنه قتل ما كنت أفكر في وجوده، ولما

اجتمعنا أمس لعقد العقد وأردت أقول زوّجت ابنتي للأمير عمير عارضني وقال قل عمر، وأتممنا العقد كأن الله جلى عن بصيرتي بذاك اللفظ وتأملت فيه وإذا هو بعينه، فظهر لي سر عظمته في نفوسنا وهيبته في قلوبنا، وأكدت بأن القوم ما قتلوه ولكن شُبّه لهم ونجا، وقد أصبح الآن في ديارنا وجوارنا وكنا راغبين فيه وفي حسن معاليه على أنه صعلوك فكيف وقد ظهر أنه من أكابر الملوك، وإني أحمد الله وأشكره ولا أكفره على ما أوصله إلينا ومنّ به علينا، ولا أشك الآن أن الله بعثك لأمر كبير وشأن خطير بخصوص هذا الملك الذي ذهبت دولته ولم تذهب هيبته، وبشرني قربك منه بسعود إقباله ونجاح أعماله إن شاء الله، وها هو مالي جميعه بين يديك فاصرفي في شأنه ما تصرفين فلست أعارضك فيه، فإن تعويلنا الجميع على تصرفاتك وحسن تدبيراتك وقد سلمنا لكِ الأمر، فافعلي ما بدا لك فأنتِ أهل لذلك. فقالت له: بارك الله فيك وإني بنفسي أقيك وأفديك، وسأقدم بين يديكما أعمالًا تذكر وأفعالًا تشهر، فطب نفسًا وقر عينًا، ودعت له وأثنت عليه، ثم تحدثا برهة ودخلت أم السيدة نعاس وجلست معهم وحيّت أم حكيم وأنستها، ثم تعاهدوا جميعًا على كتمان السر وإخفاء هذا الأمر حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا، وبعدها استأذنت أم حكيم وانصرفت مع فيروز البطل الصنديد إلى الصحراء ودخلت القصر عندما لاح الفجر فصلّت ونامت.

وفي الصباح قامت وأجرت مصلحتها على حسب عادتها، وأقامت على ذلك سبعة أيام، وفي الليلة الثامنة دخلت أم حكيم عند الأمير والسيدة عشاءً للمسامرة والمحادثة كالعادة، فجعلت تحدثهما بنوادر غريبة وأخبار عجيبة، وحكم وأمثال عن نساء ورجال حتى استحكم الأنس وصفت النفس،

فأشارت أم حكيم إلى السيدة نعاس بحاجبها ففهمت وتناومت وقامت إلى سريرها، وخلا المكان لأم حكيم والأمير فقالت: يا مولاي، قد كنت وعدتني أن تطلعني على أمرك ظاهره وخافيه لأخدمك فيه، فهل يفي مولاي بوعده أم بدا لهُ أمر من بعده؟ فقال لها: يا أماه إن دون هتك سري سفك دمي، ولكني أراكِ محلا للأسرار وأهلًا للاختبار، وحدثها بحديثه إلى آخره. وقال لها: فأنا الآن لا يمكنني إظهار اسمي ورسمي ما دام عمّي تترخان موجودًا وفاءً لتلك العهود والعقود.

فلما سمعت أم حكيم هذا الحديث وانجلت لها الحقيقة قامت وقبلت الأرض، وقالت: أبشر يا مولاي فستأتيك السعادة منقادة إليك تجر أذيالها، وأنت في روضتك وقصرك بين أهلك وصهرك تكتنفك الحور وتخدمك الأقمار والبدور، وتذل لك الأيام والأمور العظام إن شاء الله، وتحدثت قليلًا واستأذنت وانصرفت إلى مرقدها فنامت. وفي الصباح قامت وأدّت فرضها واستأذنت من السيدة نعاس بأن تروح لبيتها لشأن من شؤونها ضروري وتعود في غد، فأذنت لها وأوصلها فيروز إلى دارها وعاد.

فأقامت يومها تقضي مصالح، وفي ثاني يوم من الفجر ذهبت إلى مكان القوافل فوجدت قافلة سائرة إلى خراسان فاكترت فيها وسارت معهم قاصدة تلك البلدان.

أهل الحفيظة لم تُحمد عزائمهم

على المعالي وإن أغضوا أو إن غضّوا

تراهم في سكون لا حراك بهم

حتى إذا أنسوا وقتًا لها انقضوا

قال الراوي: وكان بالقافلة بعض عائلات لتجار من خراسان فتوددت إليهم أم حكيم وتقرّبت من قلوبهم، وتظاهرت بالطب والحكمة فمالوا إليها وتعلقوا بها، فسارت تستعلم منهم عن البلدة وأحوالها وناسها حتى فهمت ما تطلبه، فلما وصلوا اكترت منزلًا بالقرب من تلك العائلات ونزلت فيه، وتوددت إليهنَّ وترددت عليهنَّ حتى عرفت أكثر نساء البلد فعرفت من بينهن نسوةً يعرفن دار رئيس الحرس الذي أطلق عمر شاه، وكان قد صار قائد القواد وبيده الحل والعقد في أمور الجيوش والأجناد، فصارت تتودد إليهن وتتعارف بهن حتى توسطن في دخولها إلى دار قائد القواد، فصرفت الهمة واستعملت صوت الحكمة حتى تمكنت من القلوب وصار كل طبها طبق المرغوب، وصارت تعالج العليلة وتكرم النزيلة وتصافي الخليلة، وتساهر السهران وترشد الحيران، وأحبتها زوجة قائد القواد من قلبها وصارت لا تأنس إلا بها ولا تشفى إلا بطبها، وعرفت بالحكمة واتصل خبرها إلى قائد القواد فاشتاق أن يراها فأوصلوها إليه، فلما دخلت عليه سلمت وتكلمت فأعربت وأغربت، فزاد إعجابه بها وفي الحال استأسر لها، فصار إذا حضر من ديوانه وطلع إلى حريمه طلب أم حكيم وتحدث معها وكشف لها عن بعض أمور مهمة، فتمده رأيًا فيعمل به فينجح فيزداد رغبة فيها وتزداد قدرًا كلما ظهر خافيها، وزوجته كذلك وجواريه وسراريه حتى كأنها خلقت من هوى كل قلب، وأقامت على ذلك ثلاثة شهور حتى تمكنت من أمير والمأمور وهي تترقب الحوادث وتستطلع البواعث.

كرّ الحوادث والأيام ذو أثر

في الكائنات ومد في كل أسباب

وبينما المرء في التدبير مفتكر

إذ جاءه الأمر منقادًا إلى الباب

قال الراوي: ففي يوم من الأيام حضر قائد القواد من ديوانه وطلع إلى الحريم، وطلب أم حكيم فحضرت فلما سلمت وجلست كعادتها نظرت في وجهه فرأت عليه علامات الكدر والهم والفكر، فقالت له: ما لمولاي الأمير لا أشغل الله له بالًا ولا أساء له حالًا؟ فقال لها: يا أماه الحكيمة عرض علي أمر أظن لا يخلصني منه إلا حلول رمسي أو تلف نفسي. فقالت له: يا مولاي حسن الظنون وكل شيء يهون، وما يكون هذا الأمر الذي يحوج إلى هذا كله فاكشف لي خافيه لأنظر لك فيه فكلّ شيءٍ له دوا حتى الصبابة والهوى. فقال لها: اعلمي يا أماه الحكيمة أن ملكنا الملك تترخان رجل جبار ظلوم غشوم فاسق فاجر لا يصبر عن شهوته وهو مغرم بالجواري لا يسمع بجارية حسناء عند أحد في أي بلد إلا وأرسل وطلبها من مواليها وبذل كل ما يرغبونه فيها، وإن تأخروا نَهَبَها وأساءهم وربما قتلهم، وإن عندي جاريتي روح هي كما ترين وعلى ما تنظرين من الحسن والجمال، وقد تمكنت من قلبي واستحوذت على لبي، وقد شعرت بأن بعض الأعداء والحسّاد من ذوي المكر والعناد قصده يدس إلى الملك أوصاف جاريتي روح ويغريه بها حتى يأخذها، وأنا أتحقق أنه إذا بلغه أوصافها وما هي عليه من الحسن طلبها، فإن منعت ذهبت نفسي وإن سمحت ذهبت روحي، وأرى أن ذلك الواشي لا بد أن يفعل

لأسلب أو أقتل وإن فعل بلغ الأمل، فما العمل أرشديني أرشدك الله فقد وقعت في الارتباك وأحسست بالهلاك.

فلما سمعت الحكيمة هذا الكلام قالت له: أيها الأمير لا شرّ عليك ولا ضير وأبشر بكل الخير، وسأتوجه في غد إلى داري لقضاء بعض أوطاري، وأعود بعد غد بما يسرّك ولا يضرك إن شاء الله، فنم وأنت مأنوس ومشروح ولا تخش فراق روح.

وأصعب ما تراه العين يومًا

من الأهوال حادثة الفراق

تروع القلب صدمته إذا ما

بدت أعلامه بين الرفاق

قال الراوي: وفي الصباح توجهت إلى دارها وأحضرت مصورًا ماهرًا حاذقًا وأرضته مقدمًا بعطية سنية، وأمرته أن يصور لها صورة جارية بارعة حسبما تلقيه عليه من الأوصاف ويجيده من الإتقان، فصارت تلقي في خياله ما هو مطبوع في خيالها، فيرسمه ويصوّره بإتقان وإحسان حتى صوّر صورة جارية بديعة الجمال عديمة المثال على أتم وضع وأكمل تناسب وأحسن شكل تفتن من يراها فيبيت أسير هواها ولا يتمنى سواها.

صورة قد صورتها

يد عشاق الجمال

صوروها كيف شاءوا

واجتلوها بالخيال

قال الراوي: ثم وضعت تلك الصورة في غلاف من الحرير المزركش وأخذتها، وتوجهت إلى دار قائد القواد، فلما وصلت إليه وسلمت عليه فرح بها واستأنس بقربها، وتحدثت معه قليلًا حتى خلا المكان فأخرجت إليه تلك الصورة وناولته إياها، فلما رآها تعجب منها وسأل عنها، فقالت له: اعلم يا مولاي أن هذه صورة جارية اسمها بدور وهي عند خليفة بغداد وليس تحت قبة السماء أحسن منها، وقد علمت أنك من أخصاء الملك الذين يبذلون جهدهم في مرضاته ونيل شهواته ولذاته، وعلى هذا الحساب اجعل كأنك من تلقاء نفسك بحثت في البلاد وبعثت العيون والأرصاد لما تعلمه من غرض الملك وميله إلى الجواري الحسان حتى أتوا لك بهذه الصورة، وذكروا أنها صورة جارية بدار خليفة بغداد لا يوجد مثلها ولم يخلق شكلها، وهوّن على الملك أمرها وأغره بها وأظهر له أن الملك أحق بها وأهلها، وأن الخليفة ضعيف لا يمكنه التوقيف لأنه يميل للمسالمة لعجزه عن المقاومة لأن الخليفة ما له إلّا بغداد وما حولها من البلاد، وباقي الأرض تملّكتها الملوك وتوارثتها واستولت عليها وتقاسمتها، ولا بدّ يسرّه هذا الطلب ويجعله وسيلة لربط الوداد بين خراسان وبغداد لافتقاره إلى مساعد واحتياجه إلى معاضد، ومتى رأى الملك هذه الصورة وافتتن بها وانشغل بأمرها فلا بد يأمرك بإرسال رسول لطلب الجارية من الخليفة، فعجّل الإرسال في الحال ولا ترسل إلا رسولًا يكون ذا شهامة وقساوة ليهابوه فيجيبوه، وإذا تم ذلك إن شاء الله انشغل الملك عن روح وأمثال روح وعشت وأنت مأنوس ومشروح، لأنه لو نظرها تترخان لأسره هواها ولم يلتفت لجارية سواها، فاصرف همك وقوِّ عزمك واعرض على الملك ما قلته لك قبل أن يغتالك الواشي في روح، فتروح ويعز الخلاص ولات حين مناص.

يبيت المرء مسرورًا بأمنٍ

وآخر قد أعد له الشباكا

ورب لذاذة تهدى إليه

وقد دسوا له فيها الهلاكا

قال الراوي: فلما سمع قائد القواد من الحكيمة هذا الكلام زاد به الفرح واتسع صدره وانشرح، ووجد من الهم مخرجا وانفتح له باب الرجا، وقال لها: لا عدمنا لكِ رأيًا ولا حرمنا منك فضلًا، وهل هذه الصورة مطابقة للأصل؟ قالت: أجل وأعلى من ذلك بكثير وبالإجمال فليس لها نظير. فقال: ما دام الأمر كما ذكرت فأنا أغري الملك وأغويه وأسهل عليه كلما شرع فيه.

وفي الصباح ركب وطلع إلى الديوان ودخل عند الملك كعادته مع بقية الوزراء والأمراء، ولما انفض المجلس وانصرفت الناس تأخر قائد القواد ففهم الملك أنَّ عنده كلامًا فنحى الخدام وسأله عما عنده فقال: إن فضل مولاي الملك عليّ وجميل صنعه الواصل إلي يوجبان أن أجعل حياتي لخدمة حياته ونيل غاياته ولذاته، وأعرف شغف مولاي الملك بالجواري الحسان وبحثه عليهنّ في البلدان، فلم يزل لي عيون وأرصاد في البلاد وقد حضر لي أحد العيون وأعلمني أن ببغداد عند الخليفة جارية لا كالجواري تزري بالدراري ليس تحت قبة السماء أحسن منها جمالًا وكمالًا وقدًا واعتدالًا، وقد أحضر لي صورتها في بعض من هيئاتها، ثم أخرج من قائد القواد الصورة من كمه وناولها للملك، فتناولها الملك منه ونظر فيها فاندهش وانبهر مما عاين ونظر، وقال: أموجود

أنسية على وجه الأرض بهذه الأوصاف؟ فقال قائد القواد: نعم وإنها لفوق ذلك بأضعاف. فانشغل خاطر الملك بها وانشغف بذلك البها، وقال لقائد القواد: أرسل رسولًا للخليفة يسأله في بدور إما شراء وإما عطاءً ويضمن له عنا كل ما يحب ويختار مهما بلغ من المقدار.

ففي الحال أحضر قائد القواد قائدًا جليلًا له شجاعة وفيه غلظة وقساوة، وكتب له كتابًا بذاك المضمون ورحّله في الوقت والساعة اعتناء بحاجة الملك في الظاهر وفي الباطن اغتنامًا للفرصة قبل حلول الغصَّة، فما بات القائد الرسول على الطريق بدون مطل ولا تعويق، وانشغل تترخان بالصورة وعلقها في مجلسه الخاص وصار لا يصبر عن رؤيتها، وتمكن منه الأمل فيها واستأنس وتعارف بالصورة حتى صارت لا تزول من خياله، وأقام صابرًا على كمد ووجد شديد وكلما نظر إلى الصورة تجدد له وجد جديد، وصار يعلل نفسه بقدوم الرسول ويحسب أيام الذهاب وأيام الوصول لا يأنس بغيرها ولا ينتعش إلا بذكرها وتمكنت من قلبه واستحوذت على لبّه حتى كاد يُجَنُّ من هواها كأنه رآها أو عاشرها واقتناها، وأقام على ذلك ينتظر قدوم الرسول ويقول متى يكون الوصول؟

ولم يبلغ ذوو الغايات أمرًا

بشيء مثل أسباب النساء

فهن الجاذبات لكل قلب

وهنَّ الجالبات لكل داء

قال الراوي: أما الرسول فإنه صار يقطع المراحل حتى وصل إلى مدينة بغداد، فطلع للخليفة وأعطاه الكتاب وبلغه رسالة الملك تترخان، فلما علم الخليفة بذلك الطلب قال للقائد: متى كنت أنا نخاسًا أبيع الجواري والسراري؟ فسلم على مولاك وقل له إن تلك الجارية التي يطلبها هي بعض نسائي وحرمي وبيعها أو عطاها لا يليق بهممي وأن هذا الطلب خارج عن حدود الأدب. وكان ذلك القائد الرسول غليظ الطبع قاسي القلب كما قدمنا فغضب وأغلظ في القول وهدّد الخليفة وتوعده إن لم يسلم في الجارية ويقض حاجة مولاه، وأكثر من التعنيف والقول العنيف حتى غضب الخليفة وأخذتهُ عزَّة آبائه وأجداده فانتهر ذاك القائد وزجره وأمر بطرده وإخراجه من مجلسه، فقام القائد مطرودًا مهانًا وهو يشتم ويسب وركب من وقته قاصدًا إلى خراسان وهو غضبان، ولما وصل دخل على الملك وأعلمه بالذي جرى وزاد عليه أضعاف الأضعاف ليشتفي بتحكيم الخلاف، فغضب تترخان غضبًا شديدًا لإهانة الرسول وعدم الفوز بالمأمول، وزاد طيشه وتنغص عيشه، وأحضر قائد القواد وأخبره بالذي جرى وصار من سوء الردّ والانتهار، وقد أبرق وأرعد وخرج عن الحد، فقال قائد القواد: وما الخليفة وما بغداد مرني يا مولاي وأنا أقلب بغداد على رأس الخليفة وأقوده إليك كالناقة الضعيفة. فقال الملك: ورأس أبي ورأسي لا بد أن أسير بنفسي وأحارب بغداد وأملك تلك البلاد، فجهز الذخائر وأخرج العساكر ولا يمضي ثلاثة أيام حتى يكون الجيش ستين ألفًا على التمام.

فامتثل للأمر قائد القوَّاد ونزل من عند السلطان وانشغل في الديوان في التجهيزات واستحضار الأدوات، وما

مضى ثلاثة أيام حتى استعد الجيش للقيام، فركب الملك من قصره وركب قائد القواد وركبت العساكر والأجناد وساروا قاصدين مدينة بغداد وتلك الأرض والبلاد، ووصل الخبر إلى الخليفة فجمع الوزراء والرؤوس والأعيان وقال لهم: إن الملك تترخان ملك خراسان قد قام من بلاده بقصد أن يحاربنا بغيًا وعدوانًا ولا بد لنا من الدفاع والامتناع، فاستعدوا للمدافعة وحصنوا البلد واجمعوا الذخائر، حتى إذا حضر بجيوشه أغلقنا الأبواب وأقمنا تحت الحصار ودافعنا من خلف الأسوار حتى يفتح الله أو يحكم بما يريد. فأجابه الجميع بالقبول والامتثال ونزلوا يهيئون الذخائر ويجمعون العساكر وانشغلت بغداد وقامت على ساق وقدم في الاستعدادات وتجهيز المهمات والأدوات، وأقامت عساكر الخليفة خلف الأسوار وتهيأت للحصار، فلما وصل الملك تترخان برجاله وجيوشه أغلقوا في وجوههم الأبواب ورموهم من على الأسوار بالنشاب، فنزلت عساكر تترخان ونصبوا الخيام ورفعوا الأعلام واحتاطوا بالمدينة من كل جانب ومنعوا الصادر والوارد وشددوا الحصار، ونزل تترخان بقصر من قصور بغداد الخارجية بعيدًا عن مقر الجيش، ونزل قائد القواد بخيمته واجتهد في أداء وظيفته وخدمته ودار على الأسوار بنفسه ووضع العساكر في النقط والمراكز المهمة للحصار وقطع العلائق ومنع الداخل والخارج، ثم ذهب إلى الملك وأعلمه بما جرى وصار وأنّ المدينة أصبحت تحت شديد الحصار والقوم متمتعون بالأسوار، فأمره بالتشديد والتضييق وأن يقطع عنهم كل طريق حتى يسلموا البلد أو يخرجوا للقتال أو يموتوا جوعًا، وإن طال الحال يرمي المدينة بالنيران والنفط والقطران ويسلط عليها المنجنيقات من كل الجهات، فامتثل

الأمر ونزل يباشر أمر الحصار بنفسه، وأقام تترخان في ذاك القصر معتكفًا على لذاته وشهواته وفوَّض أمر الجيش إلى قائد القواد وأكد عليه وشدد فأظهر مزيد الاعتناء والاجتهاد في التضييق على بغداد امتثالًا لأمر الملك لنيل غاياته وقضاء حاجاته، وباطن الأمر في خدمة نفسه يغدو ويروح لئلا تروح منه روح.

سرائر الخلق أغراض منوعة

وكل ذي غاية يسعى لغايته

فكم نصوح يريك النصح ظاهره

وباطن الأمر مسعاه لحاجته

قال الراوي: وأقاموا على ذلك الحصار ثلاثين يومًا حتى كَلَّ الفريقان من شدة الحصار وملَّ الطرفان من طول الانتظار، فذات ليلة بينما قائد القواد في مرقده مستلق على فراشه يتفكر في أمره ويقول في نفسه إن خاب عملنا هذا وراحت روحي وزهقت نفسي وتكدر أنسي ويحسب ألف حساب، وإذا بالحاجب يقول له إن بالباب عجوزًا تزعم أن عندها نصيحة لقائد القواد بخصوص فتح بغداد وتستأذن في أن تقابله لتعرضها عليه، فنهض من مرقده واستوى جالسًا وأمر الحاجب بإحضارها إليه، فلما حضرت قال لها: ما عندكِ أيتها العجوز؟ فقالت له: أيها الأمير إن السر الذي عندي لا يحتمله غيري وغيرك، فقام بنفسه وأبعد الحرس وأمرهم بالمراقبة من بعيد، ولبس سلاحه ودخل وجلس وقال لها: هاتي ما عندك. فلما نظرت المكان قد خلا قالت له: أتدري من أنا أيها الأمير؟ فقال: لا. فقالت له: أنا صديقتك الحكيمة.

فلما تحقق ذلك قام وسلم عليها وأجلسها وحياها بأكرم تحية وسألها عن خاطرها وكيف وصلت. فقالت: اعلم يا مولاي أن بعد قيامكم قمت من خراسان وحضرت إلى بغداد لأكشف لكم الحال قبل حدوث القتال، لتكون على بصيرة إذا اشتدت الحيرة، فلما حضرت وتجسست ظهر لي أمر ذو بال وسرّ مكنون في بغداد إن ظهر للوجود كنت أنت المفقود، وهو على مقربة من الظهور إن لم نتدارك الأمور، وقد قضى عليَّ حقك الواجب عليَّ وإحسانك الواصل إليَّ أن أنصحك فيه وأبيّن لك خافيه. فلما سمع قائد القواد هذا الكلام انزعج واضطرب وأخذه العجب، وقال لها: وما هذا السر يا أماه؟ فقالت: اعلم يا مولاي أن الملك عمر شاه حي يرزق وهو مقيم في بغداد، وقد صاهر أحد أعيانها ومقيم عنده في عزّ وإكرام ولا بد أن يظهر أمره في هذه الحرب إذا اشتد الكرب ليتقوا به عداهم ويتخلصوا بتعضيده مما دهاهم، وأنت أدرى بما يتم وما يكون إذا ظهر هذا السر المكنون. فلما سمع قائد القواد اسم الملك عمر شاه اندهش وارتعش وقال لها: ومن عمر شاه يا أماه؟ فقالت: الذي أطلقته من سجن تترخان ووضعت مكانه ذاك المجرم الحارث ابن سنان، وحضر مندوبو تترخان وقتلوه وفهم تترخان بذلك أن عمر شاه قد راح إلى عالم الأرواح، فخلا منه فكره وارتاح باله وسره، وقد أخذت عليه العهود أنه لا يظهر ما دام تترخان في الوجود، وأرى أن البواعث والحوادث وأحكام الزمان ستظهره الآن رغمًا عن تلك العهود والأيمان، فالحق نفسك وتدبر أمرك. فعندها اختلط قائد القواد واختبط وتقيد وارتبط وقال لها: أحقٌّ ما تقولين؟ قالت: إي ورب العالمين. فقال لها: وما العمل وما المخلص الآن من غوائل تترخان؟ فقالت له: لقد علمت أيها الأمير أن لك على

الملك عمر شاه جميلًا لا ينكر ويدًا لا تكفر، فأتمم الجميل وقم بنصرته وتشييد دولته، ليكون لك الفخر والفضل وتأثير الفعل فتزداد لك الكرامة وتضمن لك السلامة واخدمه بنفسك لتجني ثمرات غرسك. فقال لها: ومن لي بذلك ودونه أهوال ومهالك؟ فقالت له: إذا جنحت للتسليم وسمعت من أم حكيم نجحت وأفلحت وفزت وربحت. فقال لها: إني لقولك سميع ولأمرك مطيع، فقد عولت عليك وسلمتُ أمري إليك، فأمري بما شئت فلا أعصي لكِ أمرًا ولا أخفي عنك سرًا.

إذا ما النفس يومًا خيروها

تخيّرت السلامة لا محالة

ومن يلقى لدى الأمرين شرًا

تخير أهون الأمرين حاله

قال الراوي: فلما أيقنت أم حكيم أن قائد القواد سلم وأخلص فيما بـه تكلم. قالت: أيها الأمير الخطير تقوم الصبح وتذهب إلى قصر الملك حسب عادتك فتجده ميتًا لا روح فيه ولا طعنة ولا أثرًا، فأظهر من الأسف والحزن عليه ما شئت أن تظهر، ثم مر بإخفاء الأمر وكتمان السر لئلا تأكلكم الأعداء ويقع فيكم الفشل وأنتم بلا سلطان، ثم علّمته ولقّنته ما يصفه ويجريه مما يدريه وما لا يدريه حتى يلتقي بالملك عمر شاه وبعدها ستعوده وتراه.

فلما سمع منها ذلك طمع في النجاة وأمن مما يخشاه، وقال لها: إن وجدت عند الصباح قد مات تترخان سهل الأمر وهان وكان ما تقولينه في الإمكان. فقالت: هذا أمر ستنظره

وتراه إن شاء الله فاصرف همك وقوِّ عزمك، واعمل بما قلته إليك تخلص إليك روحك التي بقصرك وروحك التي ما بين جنبيك، ثم قامت واستأذنت وانصرفت من حيث أتت، وتركت قائد القواد سمير الأفكار حتى طلع النهار.

وكانت أم حكيم قد أعدت أحد الفتاك المشهورين بالحذق والمهارة المعروفين بالشجاعة والجسارة، وقد أرضته بالمال والنوال على أن يتسوّر القصر على الملك تترخان ليلًا ويقتله بوضع الوسائد على نفسه حتى يميته، فلما خرجت من عند قائد القواد طلبت ذاك الفاتك وسرحته في الظلام لذاك المرام والناس نيام، فتسور جدران القصر ودخل على تترخان وهو راقد في فراشه ووضع على نفسه وبرك عليها حتى فارقت روحه جسده وتركه وذهب من الوسائد حيث أتى، ولما طلع النهار ركب قائد القواد وذهب إلى قصر الملك كعادته فوجده لم يستيقظ من نومه وفات الوقت المعتاد، فدخل أحد خاصته يوقظه فوجده جسمًا بلا روح فجزع واضطرب وبكى وانتحب، فسمع قائد القواد ومن معه من خاصة الملك ذاك البكاء والنحيب فسألوا عن الخبر فأخبروهم، فدخلوا إليه وكشفوا عليه وإذا هو ميت في فراشه بدون أثر فبكوا وتأسفوا وتعاهدوا على الكتمان حتى يظهر لهم سلطان.

بجهة الدهر سطر خطه قلم

بأحرف واضحاتٍ غير ملتبسه لو

لو كان يدري حليف البغي مصرعه

لما تقلد سيف البغي من لبسه

قال الراوي: وأكّد قائد القواد على من عندهم تلك الأسرار أن لا يفشوا هذه الأخبار لئلا تطأهم الأعداء من كل مكان وهم بدون سلطان، ثم نزل إلى مواقع الحصار وباشره كعادته طول النهار، ولما كان الليل جمع القواد والرؤوس واختلى بهم، وقال لهم: قد علمتم أننا جئنا لنحارب الخليفة في بغداد لا لوجه حق وإنما لقضاء شهوة تترخان لا غير، والآن قد مات فجأةً في فراشه وراح لسبيله وإن شاع ذلك دبّ الطيش في الجيش وفشل العسكر وأكلتنا عساكر بغداد أكلة جائع، وإذا نجونا بأنفسنا فلا نأمن الذين خلفنا في خراسان من أن يطردونا ولا يقبلونا فنهلك ونضيع نحن الجميع، فما رأيكم في ذلك يا وجوه القوم وما الذي نعول عليه من اليوم؟

فلما سمع القواد هذا الكلام تعجبوا من تلك الأحكام، وقالوا لقائد القواد ما دام يكون الملك قد مات وفات من أمره ما فات، فأنت المقدم وأنت المحكم فافعل ما تراه فكلنا لقولك سامعون ولأمرك مطيعون، فقال لهم: الذي أنظره وأراه هو أن نتفق ولا نفترق ونكون كلمةً واحدةً، واعلموا أن الملك عمر شاه حي يرزق وهو متستر في بغداد في زي بني الأجناد، وقد صاهر أحد الأعيان التجار ذوي الاعتبار يسمى السيد أبا الحسن بن كريم ومقيم عنده في إعزاز وتكريم، ومن الرأي عندي أن نرسل للخليفة رسولًا نستأذنه في الوصول إليه لنعرض بعض الشؤون عليه، ومتى وصلنا طلبنا السيد أبا الحسن وكشفنا القصة وانتهزنا الفرصة وأعدناه إلى ملكه وملك أبيه، وانتظمنا في سلك خدمته وتظللنا بظل دولته وننال مزيد الإقبال بهذه الأعمال، ويفرح الخليفة وأهل بغداد بزوال الشر والعناد، ثم نعود بالسلطان إلى خراسان فلا يقاومنا أحد

لأنه صاحب البلد، وإن لم نفعل ذلك وقعنا في المهالك وتلاعبت بنا الفتن في الغربة والوطن، ونقع في مصائب الدهر وآفاته ونكون ممن ضيعوا الحزم في أوقاته، فقالوا جميعًا لقائد القواد وقد فرحوا بخبر الملك عمر شاه: إذا كان الملك عمر شاه موجودًا في قيد الحياة فنحن له عبيد يفعل بنا ما يريد، وليس للملك إلا عمر شاه فقم وأنفذ ما تراه، فأخذ عليهم العهود بالطاعة وأن لا يخرجوا عن الجماعة وانصرفوا.

ولما كان في الصباح أرسل قائد القواد رسولًا إلى الخليفة يستأذنه في الوصول إليه والمثول بين يديه هو وبعض من القواد بعرض شأن من الشؤون يحقن الدماء ويصون، فوصل الرسول إلى أبواب المدينة وأعلم الحجاب أنه نجاب وحامل كتاب، فاستأذنوا له الخليفة فأمر بإحضاره فلما وصل إليه أبلغه الرسالة فأذن لهم، فعاد الرسول وأخبر قائد القواد فركب هو وجملة من قواده وأمراء الجيش ودخلوا إلى المدينة وهي مكتئبة حزينة لطول الحصار وقلة الأنصار، ولما وصلوا إلى دار الخليفة استقبلهم الحجاب والنواب من الأبواب وأدخلوهم إلى الخليفة أمير المؤمنين وهو من الهم مكتئب حزين، فلما رآهم حياهم وأدناهم وسأل قائد القواد عن أسباب الحضور، فقال: إننا أتينا إلى مولانا أمير المؤمنين لأمر يسر ويرفع الشر ولكن لا نعرضه إلا بحضور السيد أبي الحسن بن كريم أحد أعيان تجار بغداد الأمجاد لأن مرجعه إليه ونجاحه على يديه، فأمر الخليفة في الحال بإحضار السيد أبي الحسن فبعد برهة قليلة حضر فاستقبله الخليفة بالإكرام والاحترام وكذلك القواد الكرام، ولما جلس واستقر قام قائد القواد على قدميه وقال: أقسم بالله وآياته ونبيه ومعجزاته ورأس أمير

المؤمنين وآبائه الكرام الطاهرين أن تترخان قد هلك وعمر شاه قد ملك، وقد جئنا لخدمته ونصر دولته، ونحن نتوسل بسيدنا ومولانا أمير المؤمنين إلى السيد أبي الحسن أن يوصلنا إلى ملكنا العظيم فإنه صهره الكريم لنسلمه زمام ملكه ونعيد الدر إلى سلكه.

إذا ما كوكب الإقبال لاحا

وجدت بكل مفسدة صلاحا

ونلت الملك والسلطان عفوًا

ولم تعمل بجارحة سلاحا

قال الراوي: فلما سمع الخليفة والسيد أبو الحسن من قائد القواد هذا الكلام وتلك الأيمان والأقسام، وصححوا الخبر من بقية من حضر قام القوم وقبلوا الأرض وهنَّأ بعضهم البعض وفرح الخليفة واستبشر بزوال الكدر والخطر.

وبينما القوم في ضيق وفي حرج

من الحصار وقتل السيف إن خرجوا

يخشون بأس العدى من كل ناحية

في نقطة اليأس إذ وافاهم الفرج

قال الراوي: وفشا الخبر في البلد فزال الهم والنكد وعم السرور وانجلت الأمور. أما الخليفة فإنه التفت إلى السيد أبي الحسن وقال له: حيث إن الأمر كما ذكر فلا بد من أن نذهب جميعنا إلى الملك عمر شاه لنسلم عليه ونهنئه بالمُلك

الذي وصل إليه، فلم ير السيد أبو الحسن بن كريم سوى التسليم، فركب الخليفة في حجابه ونوابه وركب قائد القواد بقواده وأصحابه وركب السيد أبو الحسن بن كريم، وساروا في موكب عظيم حتى وصلوا قصر الصحراء، وكان قد سبقهم السيد أبو الحسن فوجد المكان في غاية الاستعداد لمثل هذا المراد ووجد قاعة لطيفة قد تهيأت للخليفة وكل شيء في غاية الانتظام على حسب الغرض والمرام، وكان السبب في تجهيز المكان وهذا الإتقان أن أم حكيم بعد أن لقنت قائد القواد ما يقول وما يصنع كما تقدم، وسرحت ذاك الفاتك لقتل تترخان كما سبق، انتظرت حتى عاد ذاك الفاتك وأخبرها بنفاذ الأمر، فذهبت إلى قصر الصحراء ليلًا ودقت على فيروز الباب ففتح ولما رأى أم حكيم سلم عليها وفرح بها، وقال لها: أين كنتِ وكل يوم ترسلني مولاتي أدور عليكِ وأسأل عنك ولا كنت أقف لكِ على خبر؟ فقالت له: قد جئت وزال البأس إن شاء الله.

ثم إنها نامت عنده إلى الصباح وطلعت إلى القصر فلما رأتها السيدة نعاس كاد يغشى عليها من الفرح وسلمت عليها وصارت تقبل رأسها وما بين عينيها، وأخذتها وأدخلتها إلى الملك عمر شاه ففرح فرحًا شديدًا وسُرَّ بلقياها لما رآها، فقبلت الأرض بين يديه ودعت له وأكثرت من الثناء عليه، ثم جلست فسألها عن غيبتها الطويلة فقالت: كنت في خدمة مولاي الملك وقصت عليه القصة من أولها إلى آخرها، ثم قالت: إن الخليفة وقائد القواد سيحضران برجالها إلى القصر لنجاز الأمر، وقد علمت أن عمك تترخان قد مات وتخلصت من عهدة تلك اليمين فاستلم زمام ملكك فالكل تحت أمرك، فما الملك إلا العساكر والقواد الذين بهم تنقاد البلاد، وقد أتوا إليك

وهم صاغرون لأمرك طائعون، فاقبل ما تدعى إليه واشكر فضل ربك عليه.

إذا هي أدبرت منعتك تأوي

لظل أراكمة أو تدنو أرضًا

وإن هي أقبلت جاءتك تسعى

لترقيك السماء علًا ترضى

قال الراوي: فتعجب الملك عمر شاه غاية العجب من تلك الأفعال العجيبة والأعمال الغريبة، وشكر فضلها على فعلها ورأى أن تلك الأفعال والأعمال لا تصدر إلا من فحول يعوّل عليهم ويركن إليهم زيادةً على ما سبق من تلك المظاهرة وتحكيم المصاهرة، فأجزل لها الشكر وسلم لها الأمر، فدعت له بدوام العز والبقاء، وأشارت عليه باستقبال القوم في ذلك اليوم واستلام قيادة الجيش قبل أن يلحقه الطيش، فسمع مشورتها وقبل إشارتها.

وقامت هي تهيّئ المكان للقادمين فهيأت تلك القاعة اللطيفة للجماعة والخليفة، وهيّأت البستان والمكان وأعدت ما يحتاج له الحال في مثل ذاك الاستقبال، هي وفيروز والجاريتان ومساعدة السيدة نعاس لهم، ولما كان ثاني يوم حضرت الجماعة وتقدمهم السيد أبو الحسن كما قدمنا ووجد المكان بهذا الإتقان كما وصفنا، سأل فيروز عن السبب فأخبره أن هذا رأي أم حكيم وإنها حضرت أمس من غيبتها وأجرت ذلك، فأكد أن هذا الصنع كله صنعها والفعل فعلها، وإنها هي التي قادت هذا الجيش إلى هذا المكان وقتلت تترخان لترد مُلك المَلك عمر شاه إليه من دون أن يشق ذلك عليه،

ففرح واستبشر وعاد فاستقبل القوم أتم استقبال وأجلسهم في تلك القاعة، وانتشرت الحواشي والأتباع في البستان وصهلت الخيل، ووقفت الحجاب على الأبواب، ولاح على المكان ناموس الملك والسلطان، فلما استقرت الجماعة في القاعة دخل السيد أبو الحسن فأعلم الملك عمر شاه بالقصة وهنّأه بالمُلك وسأله أن يظهر للقوم في هذا اليوم السعيد فإنه يوم عيد، فشكره وأثنى عليه وأجابه إلى ما يدعوه إليه ولبس خلع الملك فظهر كأنه القمر انجلى عنه الغمام أو الشمس زال عنها القتام، ودخل على القوم فأكبروه مذ رأوه وقاموا إليه وتراموا عليه يقبلون أهداب الثياب، وعانقه الخليفة وقبّل أكتافه وانبهر من ذاك الجمال والكمال، وترامى قائد القواد عليه يقبّل يديه ورجليه ويتضرع إليه، فهشّ وبشّ الملك عمر شاه في وجهه وفي وجوه القوم، وقال:

لا تثريب عليكم اليوم ولا لوم. فقال الخليفة: بارك الله فيك أيها الملك الجليل فقد مننت وتفضلت وصفحت لصفح الجميل، وإني لأوفى الناس حظًا ونصيبًا حيث أبدلني الله مكان العدوّ حبيبًا ونسيبًا، ثم قام وقلّده السيف وألبسه التاج الوهاج فظهر على الجميع مزيد الأنس والابتهاج، فزان ملك الجمال جمال تاج الملك، وأفنى صبح السعود تلك الليالي الحلك، واستأنست به النفوس وأحبته القلوب وهابته.

أتم الحسن حسن ذوي الكمال

ومن ملكوا نفيسات الخصال

وأحسن ما يكون الفضل يومًا

إذا ما كان في أهل المعالي

قال الراوي: وفتن الناس بجماله وكماله وشريف خصاله، وهنّأه الجميع بالملك، وشربوا السكر المبلول بالعنبر المحلول، وركب الخليفة وركب الملك عمر شاه وقائد القواد في موكب حافل، وذهبوا إلى مقر الجيش فنزلوا الخيام بالإعزاز والإكرام، وكانت العساكر مصطفة للسلام بأتم انتظام، فلما جلسوا واستقر الملك أمر برفع الحصار عن المدينة وفتح الأبواب، وأن يواروا عمه تترخان في التراب فجهزوه وواروه وتحت الأرض داروه.

حكم الإله يحار فيه العاقل

ويحار في تفصيل ذاك الفائل

كم من قضاء في الأنام جرى بأن

يحيا القتيل وأن يموت القاتل

قال الراوي: وارتفع الحصار وفتحت الأبواب واختلط الناس بالناس يهنئ بعضهم البعض بزوال الشر والبأس، وأمر الخليفة بعموم الزينة في المدينة، ثم ركب الملك عمر شاه والخليفة وقائد القواد والنواب والحجاب ودخلوا إلى المدينة، واستأذن الملك عمر شاه من الخليفة وتوجه إلى قصره ووعده الزيارة في غد، وسار برجاله وقواده حتى وصل القصر فدخل وجلس في إيوانه وجلس معه قائد القواد برهةً واستأذن للرواح إلى الصباح، فأذن له فقام ورتب الحرس الملوكي بنفسه وعاد بمن معه إلى الخيام، وطلع الملك عمر شاه إلى مكانه فاستقبلته أم حكيم والسيدة نعاس بالبشر والانشراح والدنيا لا تسعهم من كثرة الأفراح، ولما جلس دخلوا عليه وقبلوا الأرض بين يديه وهنأوه بالنصر والفتح المبين، ودعوا له وأثنوا عليه

ففرح بفرحهم وسُرَّ بسرورهم، وقال لأم حكيم: إني لعاجز عن مكافأتكِ على جميل صنعك معي، ولكني قد اتخذتكِ أمًّا حنونة شفوقة يهمها همي ويغمها غمي، وأسأله تعالى أن يقدرني على بِرّكِ والقيام بشكرك فأنا ولدك البار إن شاء الله.

وكم أم وما ولدت ولكن

لها من دهرها ولدٌ كريمٌ

وأخرى عانت الأهوال حملًا

وليس لها من الدنيا حميمُ

قال الراوي: وقامت في المدينة أعلام الزينة على ساق وقدم وبذل الكل وخدم، خصوصًا في دور ذاك الرجل العظيم السيد أبي الحسن بن كريم فإنه أقام الأفراح والليالي الملاح وبذل الطعام وكسا الأيتام، وأقسم ألا تبرح عساكر خراسان من ضيافته ثلاثة أيام، واستهول الجميع ذاك الصنيع وأكبروه وشكروه. وفي ثاني يوم ركب قائد القواد بقواده صباحًا من المعسكر وأتوا إلى الملك عمر شاه في قصره فأدّوا الخدمة حسب الرسوم، وركب معهم الملك عمر شاه وذهبوا إلى دار الخليفة وشقوا المدينة وهي بأكمل زينة والناس تدعو له وتثني عليه حتى وصلوا، فاستقبلهم الحجاب والنواب ورفعت الستائر عن الأبواب والعساكر وقوف صفوفًا في غاية الانتظام للسلام، فدخل الملك وقائد القواد على الخليفة فأحسن استقبالهم وعانق الملك وحياه بأكرم تحية، ومدت الموائد للضيافة برسوم الخلافة، وبعد أن أكلوا وشربوا وتلذذوا وطربوا، قاموا وركبوا وشيعهم الخليفة خطوات، وعاد الملك عمر شاه إلى قصره وكان معهم السيد أبو الحسن فانصرفت القواد والأجناد إلى

الخيام، وتأخر قائد القواد والسيد أبو الحسن عند الملك للطعام حسب أمره، فلما جنّ الظلام جلس الثلاثة للحديث والمسامرة والمشاورة فلما أخذوا في الكلام جعل قائد القواد يحمد الله ويثني عليه الذي أنقذهم من الضلال والوبال، فقال له الملك عمر شاه: لأجل روح كادت تروح أرواح زيادة عما راح، وكان قائد القواد ذكيًا نبيهًا ففهم الإشارة وأحس بالعبارة، وعلم أن الأمر مقصود من أول الوجود فقام وقبل الأرض واستجار وأحال على الأقدار، فطيب خاطره وأخلص له باطنه وظاهره فدعا له بدوام دولته وتأييد شوكته، ثم جلس حتى ائتنس وقال للملك عمر شاه: يا مولاي، وأين هي صاحبة ذاك السر؟ فقال: ستحضر. وأشار إلى فيروز فغاب برهةً وحضر بأم حكيم وهي في ثياب الحشمة والوقار وجلباب الحكمة والاعتبار، فلما دخلت سلمت قبل أن تكلمت فقام الملك عمر شاه إجلالًا وتعظيمًا لها وقام قائد القواد والسيد أبو الحسن وسلموا عليها، فلما عرفها قائد القواد انبهر واندهش، وقال: الآن عرفت من أين جاءنا السيل وفرح بها وسلم عليها، وكذلك السيد أبو الحسن فرح أشد الفرح بلقياها لما رآها وصار يسألها عن غيبتها، فقال له الملك عمر شاه: كانت تخدم قائد القواد في خراسان لتسلم له روح. فقال قائد القواد: والله يا مولاي لقد خلت ذلك ولكن الحمد لله قد أعاد الله درهمنا دينارًا بل قنطارًا بل قناطير مقنطرة. ولما اطلع السيد أبو الحسن على جلية الخبر تعجب واستغرب من هذا الإتقان والتحكيم الذي أتت به أم حكيم، واعترف الجميع بفضلها لأنها أقامت دولة الملك عمر شاه، وأحكمت المصاهرة للسيد أبي الحسن، وخلصت روحًا لقائد القواد، وأنقذت العباد والبلاد واقتصت من تترخان بدون أن يشعر إنسان.

إذا كان الطبيب له صواب

تصرّف طبُّه في كل داء

وهانت كل معضلة عليه

وفاز الكل منه بالشفاء

قال الراوي: ولما فرغوا من هذا الإعجاب والإطناب أخذوا يتذاكرون في مستقبل الأحوال، فقالت أم حكيم لقائد القواد: وما الذي عزمت أن تجريه من العمل الآن؟ فقال لها: نصرف الجيش لجهاته من هنا ليخف حملنا، ونعود بعساكر خراسان فقط فإن فيها الكفاية للغاية فليس أمامنا من الأخطار ما يحوج لهذا الجيش الجرار. فقالت له: الأمر بخلاف وأمامكم مصاعب خطيرة وعوائق كثيرة، فإني استكشفت الحقائق وأنا بخراسان وأعلم أن هناك حزبًا كبيرًا لتترخان ورئيسهم مرزاخان صهره أمير الجبل وهو جبار عنيد وشيطان مريد، ولا بد أن يقوم ويدعو للطفل ولد تترخان ويجعل نفسه وصيًّا عليه ويجد حتى يستبد، والرأي أن يبقى الجيش بتمامه على تبعيته ونظامه ويسير به الملك قاصدًا خراسان وتلك الأوطان، فإن كان الظن بخلاف لم يضره الحزم وإن كان ما حسبناه كنا في منةٍ وقوّة، فعندها يتغاضى الملك عنهم ويتغافل عما هم فيه ويتركهم وشأنهم حتى يتمكن سم الطمع وحقد التنافس فتتنافر القلوب وتفسد ذات البين ويقعون في بعضهم البعض، فتلتجئ الأبرياء بالملك فيقوم معهم بعسكره وجنده ويكبس البلد بخيله ورجاله، فيفتر المرتاب حين يرى العذاب ويذل الكل ويخضع ويزول كل مطمع، فإذا راق الحال وانصرفت الرجال حضر السيد أبو الحسن بالعيال وهذا الذي أراه والرأي للملك.

إن الملوك إذا غابت لحاجتها

عن حضرة الملك خافوا وثبة الجاني

فحصنت بسديد الرأي قوّتها

لتتقي سطوات الإنس والجان

قال الراوي: فصوب الجميع رأيها وعولوا عليه ووجهوا عزمهم إليه، ثم انصرفوا على ذلك. وفي الصباح أخذ قائد القواد في التجهيز والاستعداد، وفي اليوم السابع حضر الخليفة وعلماء وأعيان بغداد وحضر قائد القواد، فودع الملك عمر شاه السيدة نعاس وأم حكيم، ثم نزل وركب مع الذين حضروا لتشييعه حتى نزلوا الخيام فودع بعضهم، وقام الملك عمر شاه بجنده من تلك الأرض وقد تحركت أشجانه إلى الأوطان ومعاهد خراسان.

إن الغريب وإن أثرى بغربته

لا بد من أنه يشتاق للوطن

لا يُخرج المرء عن أرض أضاع بها

عهد الشبيبة إلا حادث الزمن

قال الراوي: وما زال الملك عمر شاه سائرًا يقطع البراري والقفار بذلك العسكر الجرار حتى وصل إلى أرض خراسان وتلك الأوطان، فوجد الأمر كما حسبت أم حكيم، وذلك أن تترخان ترك طفلًا صغيرًا عمره سنة اسمه شاور فلما وصل الخبر بموت تترخان قام صهره مرزاخان أمير الجبل وجمع الجموع وحشد الرجال وجعل الملك لشاور الطفل

الصغير وجعل نفسه وصيًّا عليه، وأقام بخراسان يدافع من أتاه، وبعث العمال في جميع الأعمال وجبى الأموال، وأخبر أهل الدولة القديمة وقدم أحزابه اللئيمة وحجر على الملك وعائلته في القصر لا يصل إليهم أحد، واستبد بالأمر وأقام متهيأ لمقاومة الملك عمر شاه وجنوده.

فلما وصل الملك عمر شاه إلى تلك الأرض وعرف ما هم فيه وما أصروا عليه مال إلى مرج من المروج الزاهرة ونزل فيه بعسكره، وأقام بهم على غدران يسرحون ويمرحون وعن مكانهم لا يبرحون مدة ستة أشهر، والذخائر ترد إليهم من بغداد مع حامية من القواد والأجناد.

وفي هذه المدة صفت لمرزاخان الأمور وتمكن منه الكبر والغرور، واستبد أشد استبداد على جميع العباد، وزاد في إساءة عائلة الملك والتضييق عليهم وعدم وصول أحد إليهم، فنفرت عائلة القصر من مرزاخان وشكوه لكل إنسان، فمالت إليهم القلوب وانعطف عليهم كل مغلوب، وأشاروا عليهم بقتله والتخلص من سوء فعله فأجمعوا أمرهم على ذلك وسلطوا العبيد، فلما حضر مرزاخان القصر بعد العصر كعادته لنظر أشغاله وتفقد أحواله، اصطفت العبيد في الدهليز فلما صار مرزاخان في وسطهم هجموا عليه بالخناجر والسكاكين فقتلوه وعلى الأرض طرحوه، واجتمعت عائلة القصر وأخذوا شاور بن تترخان الطفل معهم وذهبوا مع أعيان خراسان إلى معسكر الملك عمر شاه، فلما وصلوا إليه واستأذنوا للدخول عليه أذن لهم.

فدخلوا وتراموا على أقدامه يقبلونها ويطلبون منه الصفح عما جرى وكان، وألا يعاملهم بإساءة مرزاخان وأنهم قد قتلوه إنكارًا لأمره ومكافأة على غدره، فصفح عنهم الملك عمر شاه وأكرمهم غاية الإكرام، ثم إنه أمر القيام من ذاك المكان والدخول إلى خراسان فقاموا وساروا حتى دخلوا ذاك العرين وقطعوا دابر المفسدين.

إن اللئام وأهل النقص إن ملكوا

ما بين هذا الورى غرتهم النعم

حتى إذا أسرفوا في نيل غايتهم

منها وطابت لهم أردتهم التخم

قال الراوي: واستولى الملك عمر شاه على خراسان واستوى على عرش ملكه وعاد الدر إلى سلكه، فبذل الفضل وأظهر العدل ورد المظالم وقمع كل ظالم، ونظر في الأعمال والعمال ومحا دولة الضلال، ففرحت الرعية بسيرته المرضية وأقاموا شعائر الزينة في المدينة سبعة أيام.

وبعد أن تم الأمر وزال الشر، أرسل الملك قائدًا من القواد إلى بغداد فأحضر السيد أبا الحسن بن كريم والسيدة نعاس وأم حكيم، فلما حضروا استقبلهم الملك نفسه وزاد بهم أنسه، ودخلت السيدة نعاس إلى القصر وأم حكيم معها، ونزل السيد أبو الحسن بدار فيحاء أعدت له فسكن فيها بأهله وعياله، وفرح الكل بجمع الشمل، وزاد الهنا وزال العنا، وفرحت جميع الناس بزوال الهم والبأس.

أرى الأقدار في الأكوان تجري

على من لا يفيق ومـن أفاقا

فأهل الخير تدركهم بلطف

وأهل الشر تمحقهم محاقا

قال الراوي: وكانت السيدة نعاس حاملًا عند حضورها إلى خراسان، فلما أتمت أشهرها وضعت غلامًا كأنه البدر ليلة أربع وعشر، ففرح به الملك عمر شاه والسيدة نعاس وسائر الناس، فعملوا له زينة في المدينة وأتقنوا المهرجان لمولد ابن السلطان واختاروا له المراضع والمواضع وسموه عز الدين، ولما بلغ أوان الفطام فطموه، ولما بلغ أشده أسلموه إلى الأساتذة، وأمر الملك أن يرفقوا معه شاور بن تترخان عمه وأن يلازمه في تعليمه ولا يقصروا في تكريمه وفاءً بحقوق الذمة وأداء لواجب المروءة والهمة، وكان شاور أكبر من عز الدين بسنتين ونصف فتلازما وائتلفا وصار الواحد منهما لا يصبر عن الآخر، وكانا بعد قراءة الدروس يركبان الخيل ويطلعان إلى الصحراء ويجولان في تلك الوديان والقيعان ويطاردان الغزلان.

ثم يعودان مساءً إلى القصر فيأكلان ويشربان وينامان في مكان أعد لهما في القصر بين معازل الرجال والحريم ولهما خدم وحاشية مخصوصة يقومون بشأنهما أتم قيام، وكان الملك عمر شاه والسيدة نعاس وأم حكيم يزورونهما أحيانًا فيفرحون بما يجدون من ائتلافها وارتباطهما، فكانت أم حكيم تقول أكرم عدوَّك فربما نفعك يومًا أكثر من الحبيب.

أكرم عدوك ما استطعت وداره

واستره بالمعروف والإحسان

فلربما نفع العدو بساعة

لم يجد فيها أصدق الخلان

قال الراوي: وكان عز الدين أذكى وأنبل وشاور في الشجاعة أقتل، فكان يقي عز الدين بنفسه ويحرسه بسيفه وترسه، ويخاف عليه الآفات في الفلوات فلا يفارقه وقتًا من الأوقات، وفي يوم من الأيام خرجا للصيد والقنص واغتنام الفرص كالعادة وجالا في تلك الوديان يطاردان الغزلان، وبينما هما كذلك إذ لاح لعز الدين غزال في غاية الجمال فأعجبه حسنه وبهاؤه وأراد أن يمسكه بالحياة، فطرد وراءه فأوسع الغزال في البر عدوًا وطار جريًا وعز الدين وراءه على الأثر، فلا كان يلحق له غبار حتى انقضى النهار، ودخل الظلام واختفت الأجرام وغاب الغزال عن عين عز الدين، فحبس جواده وانشغل فؤاده وتأمل يمينًا وشمالًا فلم يجد إلا تلالًا ولم يدر من أين أتى وإلى أين يذهب، وكان قد لحقه الإعياء والتعب فنزل عن جواده وتركه يرعى من نبات الأرض واختار شجرة متجنبة عن الطريق ونام تحتها واستغرق في نومه ولم يدر أمسه من يومه، ولما كان نصف الليل مر ثلاثة من الذين يسلبون الخيل فحادوا عن الطريق وجلسوا تحت تلك الشجرة ليستريحوا قليلًا، فوجدوا عز الدين يخبط في نومه فقالوا يا بشرى هذا غلام وتقدموا إليه وكتفوه فلم يفق عز الدين إلا وهو مشدود الكتاف مربوط السواعد والأطراف، ثم هددوه بالسكين وقالوا له: إن صحت أو بحت قتلناك وعجلنا فناك فخاف من القتل إن تكلم فصبر وسلم.

لا تعجبوا من مليك بات مرتهنًا

في قبضة الأسر يكسو الصبر كتمانا

فكل نفس على الدنيا وإن كرمت

لا بد يسري إليها الهمّ أحيانا

قال الراوي: وربطوه على جوادهِ بالعرض وساروا يقطعون تلك الأرض، وهم على ظهور الخيل يقيمون في النهار ويمشون في الليل حتى وصلوا إلى مدينة قندهار، فراحوا بعز الدين إلى سوق الرقيق وباعوه بألف دينار إلى ملك تلك الديار، وكان الملك قد أعد قصرًا خارج المدينة وجعله للغلمان الخاصة، وأمر أن لا يباع غلام في المدينة إلا بعد عرضهِ عليهِ فإن أعجبه اشتراه وإلا باعوه لمن شاءوا، فلما اشترى عز الدين أرسله إلى ذلك القصر لينتظم في سلك تلك الغلمان، وأن يصرف له أدوات كأدواتهم ومرتبات كمرتباتهم، وتخيل فيه النجابة فأمر بتكريمه والاعتناء في تعليمه، وكان بالقصر مئتا غلام ففاقهم حسنًا وجمالًا وفضلًا وكمالًا، وكانوا يخرجون لرمي النشاب وتعليمهم الفروسية على ظهور الخيل فكان يخرج معهم عز الدين فيفوق الكل براعة وشجاعة هذا مع الرزانة والسكون وتقدمه في أنواع الفنون، فاعترف الكل بفضله ورفعوه مكان قدره وبلغ السلطان ذلك فزاده إكرامًا وزاد لديه احترامًا.

ما الفضل إلا للذي ساد الورى

بالعلم والأخلاق ليس بمالهِ

لا يصحب الإنسان يومًا إن نأى

إلا معارفه وحسن خصاله

قال الراوي: وكان للملك قصر وبستان بجوار ذاك القصر قد أعده لنزهته ونزهة أهله وعياله، وكان يحضر أحيانًا ويتفرج على غلمانه ويتفقد مرتباتهم وينظر تعليماتهم ويعود إلى قندهار، وكذلك أهله وعياله يأتون إلى ذلك البستان ويبعدون الغلمان عن ذاك المكان ويسرحون ويمرحون وآخر النهار يرجعون.

ففي يوم من الأيام أخلوا البستان وأقصوا الغلمان وحضر السلطان كالعادة المعتادة، وبقي عز الدين في غرفته نائمًا ولم يشعر به أحد وظنوا أنه قد خرج مع من خرج في أول الحرج، فانتبه بعد العصر وإذا لا أنيس بالقصر، فنظر من شباك الحجرة المطل على البستان وإذا بالجواري فيهِ منتشرةٌ يرتعن ويلعبن، فتعجب من هذه الصدفة وأغلق باب الغرفة، وجلس ينظر من خلال الشباك وهو في ارتباك لا يدري كيف الفكاك، وإذا بفتاة بين أربع من الجواري كأنها الشمس وسط الدراري وقد تجردت من ثيابها الخز وأكشفت عما حلا وعز، ونزلت تغتسل في الغدير الزلال فنم صفاؤه على ما فيها من الحسن والجمال، فلما ظهر المغطى والمكشوف ونظر اللواحظ كالسيوف عدم الحيل والقوى وغرق في بحار الهوى.

الحسن ملك سيوف اللحظ تحرسه

ودون نبل التداني منه أهوال

من قادم الحسن في أبان دولته

أرداء سيف من الألحاظ قتال

قال الراوي: أما الفتاة فإنها بعدما اغتسلت لبست ثيابها ولاعبت أترابها، وقضت النهار وراحت إلى قندهار، فلما زال الحرج ودخل من خرج، جاء الخادم الموكل بخدمة عز الدين وكان غلامًا نبيهًا واسمه نسيم فرأى مولاه يئن ويجن مملوء من الشجن، فأنكر أمره وأخذ فيما هو واجب عليه وصار يتقرب بالخدمة إليه حتى استأنس به وخفّ على قلبه، فلما أنس واستأنس قال لعز الدين: أرى مولاي مشغول البال زايد البلبال فهل حدث حادث أهمك وكبر همك؟ فقال: يا نسيم، أعندك موضع للسر؟ فقال نسيم: نعم أنا للسر قبر وللكسر جبر. فحدثه بالخبر وما شاهد ونظر وكيف حار وتاه في حب تلك الفتاة، وأنهُ مشغوف ومشغول ولا يدري كيف الوصول، فلما سمع نسيم هذا الخبر اغتم واهتم ولاح عليه الهم، وقال: يا مولاي، هذه الفتاة هي جلبهار بنت سلطان قندهار وقد وقعت معها في خطب جسيم وأمر عظيم لأنها وإن كانت فريدة في الجمال لكنها لا تهوى ولا تميل إلى الرجال، وقد أبت التبعل والاقتران وعاشت عيشة الرهبان، ولو كانت ممن تصبيها محاسن الرجال وتشجيها روائح الجمال لهان الأمر وتيسر، لأنها وإن كانت بدر البهاء فأنت بدر الكمال وإن كانت شمس النساء فأنت شمس الرجال، ولكنها جبلت على النفور من الزواج وعز العلاج ويصعب تغيير الطباع وقلب الأوضاع، ولا أرى في طاقة البشر قضاء هذا الوطر إلا بإمداد من ذي سر أو تأثير من ذي سحر، ورأفة بك وشفقة عليك سأبحث على بعض من السحرة المهرة الذين يستعملون الروحانيات في قضاء الحاجات ويؤلفون بين الأرواح العليَّة والأجرام السفلية فيأتون من التأثير بكل أمرٍ كبير وهذا أمر في بلادنا منه كثير، فطب نفسًا وقر عينًا فسأساعدك على هواك حتى

تبلغ مناك إن شاء الله، ففرح عز الدين بتعليل نسيم وصبر على الداء الأليم، وكلما أقلقه اليأس جدد له نسيم الأمل وأوعده بذاك العمل.

وإذا الفتى لاقى الغرام ولم يفز

مسعاه في قرب ونيل وصالِ

أصغى لمن يأتي إليه معللًا

بتعلّة من جائز ومحالِ

قال الراوي: ليوم من الأيام حضر الحريم إلى البستان فأقصوا الغلمان، واختفى عز الدين بغرفته عن قصد لما به من شدة الوجد، ودعته دواعي الحب والشغف إلى التعرض للأخطار ومواقع التلف، وجلس ينظر من خلف الشباك وهو في ارتباك، فلما انتشرت الجواري كالنجوم الدراري وأقبلت في وسطهنَّ جلبهار كأنها الشمس بين الأقمار، زاد وجده وزال رشده ولم يتمالك نفسه دون أن يفتح الشباك وتعرَّض للهلاك، فالتفتت جلبهار فرأته فصاحت على الأعوان فجاءوا البستان فأمرتهم بالقبض على عز الدين ووضعه في الحديد والعذاب الشديد حتى تبلغ الملك سوءَ فعله ليأمر بقتله، فأخذوه من غرفته ووضعوا فيه القيود والأغلال وذهبوا به إلى السجن وأغلقوا عليه الأقفال.

وانتشر الخبر وبلغ نسيم غلام عز الدين ما جرى على مولاه فكاد يجن من الحزن، ونزل خلف مولاه ليراه وبينما هو يسير في طرقات المدينة إذ نظر شابًا يمشي وهو أشبه الناس بعز الدين مولاه، فبهت فيه وتأمل إليه وبكى وانتحب فرآه

ذلك الشاب وهو بتلك الحالة فسأله عن أسباب بكاه لما رأه، فقال له: يا سيدي، إن مولاي أشبه الناس بك وهو عزيز عليَّ وقد وقع في ورطة أظن أنه مقتول فيها ولما رأيتك تذكرت مولاي فلحقني ما رأيت. فقال له الشاب: وما اسم مولاك ذاك؟ فقال له: اسمه عز الدين. فلما سمع الفتى هذا الاسم خفق فؤاده وعاوده رشاده، وقال لنسيم: هذا الذي عليه أدور من مدة شهور فأرني إياه لأنظره وأراه. فقال له: هو في السجن ولكني أريك إياه فإن السجان يعرفني وأجعل إنك من غلمان القصر ويهون الأمر، وفرح الشاب بهذا الاتفاق، وأخذ الشاب وأوصله إلى السجن، وكان السجان يعرف نسيمًا من قديم، فأدخلهما على عز الدين وهو في الأغلال وسوء الأحوال.

كم في العناية من صدف

تنفي المخاوف والتلف

يقضي الإله قضاءه

حتى إذا اشتدت لطف

قال الراوي: وكان هذا الفتى هو شاور بن تترخان، والسبب في ذلك أن عز الدين لما طرد وراء الغزال وغاب بين التلال، أقام شاور مكانه ينتظره أن يعود حتى مضى النهار ولم يعد، فقلق لذلك وبقي حتى أصبح الصباح فتتبع مواضع ركض جواد عز الدين واقتفى الأثر حتى وصل إلى مكان ملتقى الأكراد بعز الدين، فوجد الحوافر اختلطت بأثر جواده ثم ساروا جميعًا في طريق واحد فتبع الأثر، وعرف أن عز الدين قد أسر وما زال يقتفي تلك الآثار حتى أبعد عن الديار ووصل أرضًا صماء، فاختفى أثرهم وانقطع خبرهم

فوقف حائرًا ولهانًا، وسأل بعض الرعاة فقالوا: أمس مرّ علينا ثلاثة أكراد ومعهم فتى مربوط عرضًا على الجواد وسمعناهم يقولون إن قصدهم قندهار، فلما سمع شاور هذا الكلام من الرعاة سار لوجهه ولم يلتفت إلى وراه، وما زال يقطع الفيافي والقفار حتى وصل إلى قندهار، فنزل في الخان وصار يبحث في كل مكان، فلا كان يجد خبرًا ولا يعثر على أثر حتى صادفه نسيم في ذلك اليوم العظيم وجرى له معه، ووصل إلى عز الدين في السجن وهو في غاية الهم والحزن، فعندما رآه ترامى عليه وقبّله في وجنتيه وبين عينيه، وكذلك عز الدين عندما رآه بكى وأنَّ واشتكى، وحكى له ما صار وقصة جلبهار، فقال شاور لنسيم: أوصلني إلى قصر الملك فقام معه وأوصله إلى هناك، وكانت جلبهار بعد سجن عز الدين أعلمت الملك بما ارتكبه من الجناية، فغضب أشد الغضب وأمر بقتله فدخل شاور القصر وهم يتهيأون لقتل عز الدين، فتوصل إلى حاجب الحجاب وقال له: قل للملك بالباب فتى معه نصيحة للملك إن فاتته الساعة ندم عليها غاية الندم، فدخل حاجب الحجاب وأعلم الملك بذلك فأمر بإحضاره، فلما مثل بين يديه سأله عن النصيحة التي لديه، فقال شاور: اعلم أيها الملك أن الذي في سجنك وتريد تقتله اليوم ليس هو بغلام ولا مملوك وإنما هو ملك من الملوك، وقد أسرته الأكراد وباعوه في هذه البلاد، وليس من المروءة أن يساء الضيف أو يُسَل عليه السيف، وحكمك في هذا المقام أولى ورأيك أسنى وأعلى، فقال الملك لشاور: ومن يكون من الملوك هذا المملوك؟ فقال له: لا تقل مملوك يا مولاي فإنه عز الدين ابن الملك عمر شاه ابن الملك توران شاه ملك خراسان وفريد الزمان.

فلما سمع ذلك الملك خفق فؤاده وقال لشاور: أحقٌّ ما تقول؟ قال: نعم وحق الرسول. فقال: لكن أحتاج إلى تأكيد هذا الخبر ليطمئن قلبي لأني أخشى أن يكون إشفاقك عليه أوجبك إلى هذا القول لتؤخر عنه القتل الآن حتى تجدا وقتًا للفرار من قندهار. فقال شاور: إن الملك عمر شاه لا بد أن يرسل القواد والرواد إلى البلاد للبحث على عز الدين وما يمضي إلا قليل من الأيام حتى تكون رسل الملك عمر شاه في قندهار، فاحبسنا نحن الاثنين حتى تأتي رسل خراسان ويتضح لك اليقين من أمر عز الدين. فقال الملك: وأنت من تكون لعز الدين؟ فقال له: أنا شاور بن الملك تترخان ولكن نشأت لا أعرف لي والدًا إلا الملك عمر شاه ولا أخًا إلّا أخي عز الدين، فأمر الملك في الحال بإحضار عز الدين معززًا مكرمًا، ولما رآه لاطفه وحياه وأمر بقصر مخصوص ينزلان به وخدمًا وحشمًا ورواتب وما يليق لضيافة أبناء الملوك، ولكن تحت المراقبة والحكم لا يبرحان من القصر حتى يتحقق الملك الخبر.

ورب مقيد في السجن أضحى

وما يرجو الخلاص ولا السلامة

فما أمسى المساء عليه حتى

كان من بدا يختال في حال الكرامة

قال الراوي: هذا ما كان من أمر عز الدين وشاور. أما ما كان من أمر الملك عمر شاه والسيدة نعاس فإنهما لما علما بغياب عز الدين وشاور تلك الليلة باتا في قلق شديد إلى الصباح، فنزل الملك إلى الديوان وأرسل الفرسان يبحثون في القيعان والوديان فغابوا إلى المساء وعادوا بلا خبر ولا

أثر، فقلقت السيدة نعاس ولازمها الوسواس وانشغل الملك فجمع القواد وأمر كل قائد بأن يأخذ مائة من الأجناد ويطوفون البلاد ويبحثون على عز الدين وشاور فإما أن يأتوا بهما أو بحقيقة خبرهما، فخصصوا البلاد على القواد وركب كل أمير بمائة فارس كالليوث العوابس وتشتتوا في الأرض بالطول والعرض، فوصل أحد القواد إلى تلك الديار ودخل قندهار ونزل الخان بمن معه من الفرسان فربطوا الخيل ونزعوا السلاح ونزلوا البلد وتفرقوا في مجامع قندهار يستنتجون الأخبار، وكان الملك قد أوصى أن لا ينزل غريب في خان إلا وأعلموه به فلما حضرت تلك الفرسان عرفوه، فأمر بإحضار قائدهم فحضر فسأله عن شأنه فأخبره أنه قائد من قواد الملك عمر شاه ومعه مائة فارس وأنهم خرجوا من خراسان للبحث على عز الدين ابن الملك عمر شاه وابن عمه شاور فإنهما خرجا للصيد فلم يرجعا، وقد بعث القواد للأقطار ومنهم أنا حضرت بفرساني إلى هذه الديار للبحث ونزلنا الخان لنسأل من التجار وأرباب الأسفار عسى نعثر بخبر أو نقع لهما على أثر، فقال له الملك: أتعرفون عز الدين إن رأيتموه؟ قالوا نعم وكيف لا نعرفه وهو سيدنا وابن ملكنا. فأمر قائد القواد أن يحضر بفرسانه إلى الديوان ووقف بهم في صفين فنزل في الحال وجمع فرسانه وحضر بهم إلى رحبة الديوان ووقف وصفّ الفرسان صفّين، فأمر الملك بإحضار عز الدين على جواده ودخوله على الفرسان في رحبة الديوان فركب الجواد ودخل على القوم فلما رأوه أكبروه وترجلوا له على الأقدام وصاحوا هذا مليكنا وابن مليكنا البطل الهمام، فلما سمع ملك قندهار ذلك ورأى ما رآه أيقن أن عز الدين هو ابن الملك عمر شاه، فنزل وقابله بنفسه ودخل به إلى قاعة أنسه هو

وشاور والقائد، فألبسه حلة بهيّة وقلده صفيحة هندية وأمر بإحضار جواد من الجياد فحضر، فنزل بعز الدين وأركبه وركب معه بموكبه الحافل وركبت فرسان خراسان خلف عز الدين وهم غواطس في الحديد والزرد النضيد، وركب شاور والقائد وساروا حتى وصلوا القصر فنزل الملك ونزل عز الدين ورجاله، وحضر الطعام فأكلوا وشربوا، ثم أمر الملك بنزول الفرسان بدار الضيافة والقائد يبقى في القصر مع عز الدين وشاور، فتوجهت الفرسان إلى مكان نزلهم وانصرف الملك بموكبه إلى قصره.

وأقام عز الدين بالقصر مع شاور والقائد وما أعد لهم من الخدم والحشم وذلك بقصد أن يستريحوا ثلاثة أيام ويتوجهوا بسلام، فباتوا ليلتهم مطمئنين الخاطر آمنين من تلك المخاطر، إلا أن عز الدين لم يزل مشغولًا مذهولًا لا يأنس بشيء من الأشياء كأنه ليس في الدنيا، ولم يخف حال عز الدين على فطنة القائد، فثاني يوم اختلى بشاور وسأله عن حال عز الدين وعدم نشاطه وأنسه، فأعلمه بخبر عز الدين وكشف له عن سره وحقيقة أمره، وأنه مع إساءة جلبهار له تلك الإساءة لم يسلها ولا خف عنه هواها، وقال له: إذا ذهبنا به على هذه الحالة هلك منا في الطريق ورحنا إلى خراسان بالهمّ والخسران. فلما سمع القائد هذا الكلام تعجب من هذه الأحكام، ثم قال لشاور: طمئن نفسك ونفس مولاي عز الدين إن شاء الله لا نقوم من قندهار إلا بجلبهار.

وكان ذلك القائد رجلًا عاقلًا كاملًا له رأي وعزم وهمة. ففي الصباح ركب إلى قصر الملك واستأذن ودخل عليه، ولما استقر سأل الملك في خلوة معه ليطلعه على أمر

لا يسع غيرهما سماعه، فقام الملك معه إلى خلوة السر، فلما اختلى القائد بالملك قال له: يا مولاي، قد مننت وتفضلت وأحسنت وأجملت رغبة في ود صديقك الملك عمر شاه، ولكن ما الفائدة العائدة إذا توجهنا إليه بغير عز الدين وتركناه يقضي العمر حزينًا. فقال له الملك: ومن يمنعه من ذلك. فقال القائد: تمنعه جنايته التي جناها وأراد الملك أن يقتله لما أتاها. فقال الملك: قد محا تلك الإساءة وجود الكفاءة فإن عز الدين كأخيها وأباه كأبيها، وما الذي يمنعه من الرواح وهو مطلق السراح. فقال قائد القواد: نعم يا مولاي ولكن ما تفيد الأشباح بلا أرواح فأسير الهوى ليس له براح وإن كان مطلق السراح.

أسير الحب مهموم معنَّى
يُروَّع في الغدوّ وفي الرواحِ
وما ينفك في حبسٍ وأسرٍ
وإن جعلوه مطلوق السراح

قال الراوي: فقال الملك للقائد ما معنى هذا الكلام فأوضح المرام؟ فقال القائد: اعلم يا مولاي أن تلك النظرة التي سبقت من عز الدين بلا قصد قد أثرت فيه غاية التأثير وسلبته رشاده وأحرمته رقاده، وإن لم تدركه عناية مولانا الملك وإلا هلك مثل من هلك، وأرى أن مولانا الملك يأبى أن نعود إلّا مجبوري الخاطر من كل جهة إن شاء الله.

الحب صعب وإن هانت أوائله

ولذةٌ تنقضي في الهمِّ والحزنِ

لم يشف داء الهوى ممن ألمَّ بهِ

إلا الوصال وإلا ضمة الكفنِ

قال الراوي: فلما سمع الملك من القائد هذا الكلام تفكر فيه وتدبر معانيه. ثم قال للقائد: هذا شيء كان أودَّ ما عليَّ لو كان أمره بيدي. فقال القائد: فكيف ذلك يا مولاي؟ فقال: لأن الفتاة قد نشأت على بغض الرجال وكراهة الزواج فأصبح زواجها عسيرًا وأمره خطيرًا، فلو علمت أنها ترضى عز الدين لما تأخرت عن زواجها له طرفة عين، ولكن سأفاتحها في شأنه وأصف وأطنب عساها ترغب. فلما سمع القائد هذا الكلام قال: أنزّه رأي مولانا الملك عن قبول مثل هذه الأوهام، فإن الله تبارك وتعالى بحكمته وقدرته جعل الأنثى تحنّ للذكر كما تحن الأذن للخبر، وأي امرأة وجدت الكفوء الكريم ولم ترغب فيه إلا وكانت ذات علّة خفية أو سريرة غير مرضية، وما الذي تكرهه مولاتي جلبهار من مولاي عز الدين وهو ذو الحسن البارع والجمال الرائع والحسب الفاخر والنسب الطاهر والفصاحة والبراعة والفروسية والشجاعة والملك والسلطان والتقوى والإيمان، فأي فتاة بلغت ما بلغت أبت هذا القرين الثقة الأمين إلّا كانت على ريبة ووراها ألف مصيبة، ورأي مولانا الملك أعلى وأسنى.

وما استغنت نساءٌ عن رجال

وإن كانت ورودًا أو سليطة

تحن لكلّ بعلٍ كل أنثى

ولو ملكت بدولتها البسيطة

قال الراوي: فلما سمع الملك من القائد هذا الكلام تنبه وتأمل وافتكر قليلًا، ثم التفت إلى القائد وقال له: بشّر نفسك بأنك لا تعود إلا بكل المقصود إن شاء الله. ثم قام من وقته وساعته ودخل دار الحريم وطلب جلبهار فحضرت فقال لها: لقد أطلت اللجاج في التمنع عن الزواج حتى جعلتني هدفًا للانتقاد من جميع العباد، والآن قد ظهر وبان أن عز الدين الذي نظركِ من الشباك ابن ملك خراسان، وقد جاءني لكِ خاطبًا وفيكِ راغبًا ولا أقدر أقول إنه ليس بكفءٍ ولا أقدر أقول أن ليس لي بنت، وقد أجبته إلى ما طلب ورغبت فيه كما رغب وليس إلى غير ذلك سبيل، فلما رأت من عين أبيها الجد ووصل الأمر بها إلى هذا الحد، أظهرت الخضوع وأرسلت الدموع وقالت: يا مولاي، أنا ما تمنعت عن الزواج إلا لعلمي أن الرجال لا يقيمون على الحرّة إلا بضرَّة، ويتنافسون في الجواري والسراري وكنت أحب أن أعيش في نعمتك وتحت خدمتك، ولا أكابد ذاك العنا والهم والضنا، ولكن حيث رأيك أمري فافعل ما شئت من تغريبي ولو يكون فيهِ تعذيبي، فلما سمع الملك كلامها وشَمذ منه رائحة الرضا والتسليم أظهر لها عين الإعزاز والتكريم، وقال لها: إن عز الدين ليس كمن تخشين وتتقين وإنه لحافظ أمين. ثم تركها ونزل وقد أتم العمل وأرسل خلف القائد فأحضره وبشره وأمر بإحضار القاضي

والشهود، ولم يمضِ النهار حتى انعقد العقد وتم القصد، وفرح عز الدين لما أتى إليه شاور وبشره وكأنه أنشره، وشكره على جميل مسعاه حيث أنقده ونجاه من قتل الحسام وأسر الغرام.

لا شيء أشهى لدى العشاق من رسلٍ

تبشِّر الصب أن الوصل قد أزفا

كم من رسولٍ أتى فيهم بمعجزةٍ

تشفي العليل وتحيي الميت الدنفا

قال الراوي: وأمر الملك بتجهيز جلبهار ورحيلها مع عز الدين والقائد مع قائد من طرفه بمائة فارس بعد ثلاثة أيام، فجهزوها واستعدوا، وبعد ثلاثة أيام رحلوا وودعهم الملك ورجع، وسار عز الدين بجلبهار وفارق قندهار، وما زالوا سائرين حتى وصلوا إلى خراسان وسبق المبشر فنفر النفير وخرج الملك والناس لاستقبال عز الدين، فلما تلاقوا ترامى عز الدين على أقدام أبيه فضمّه وقبّله وفاضت العبرات من فرط المسرات، ودخلوا إلى المدينة وقد تهيَّأت للزينة حتى وصلوا قصر الملك، فدخلت جلبهار إلى داخل القصر عند الحريم فاستقبلوها بالتعظيم والتكريم، وسلمت عليها السيدة نعاس وهي أفرح الناس، ودخل عز الدين فسلم على والدته فضمته وقبلته وبكت ثم حمدت الله وأثنت عليه لأنه مَنّ برجوعه وجمع الشمل بعد الشتات وباتت وبات.

ولما كان ثاني يوم أخذوا في أسباب الأفراح والليالي الملاح وأقاموا العرس، وقامت البلد على ساق وقدم في التجهيزات ودارت الأفراح وبدا نجمها ولاح، وكانت السيدة نعاس لا تغفل عن جلبهار لا في الليل ولا في النهار، وهي

تخدمها بنفسها وتطلب مزيد أنسها وهي لا تهش ولا تبش، فأنكرت حالتها السيدة نعاس وتعجبت من عدم استئناسها بالناس، ولكنها صبرت على ما بها وجعلت سرها في قلبها ولم تظهر منه شيئًا، ونزل القائد المحضر مع جلبهار من قندهار في أعز مكان هو ومن معه من الفرسان حتى يحضروا الزفاف وهو في أتم إكرام وأعز احترام. أما السيدة نعاس فإنها لما طال عليها الحال من جلبهار ونفورها شكت أمورها إلى أم حكيم فقالت لها: لا تضيّقي صدرك الآن فهذه الفتاة ليست بفارغة القلب وسيظهر لها شأن.

إذا أكرمت من تبغي رضاهُ

ولم ينشط ولم يأنس ببرك

فلا تكثر عناك به وحقق

بأن القلب مصروف لغيرك

قال الراوي: ولما أتموا العرس وزفوا العروس وانشرحت الصدور وطابت النفوس، ودخل عز الدين على جلبهار واختلى بها أخذ يحادثها ويجانسها ويلاطفها ويؤانسها، وهي تتكلف الجواب وتتثاقل في الخطاب، وبينما هما كذلك وإذا بالباب قد انفتح والملك عمر شاه داخل في يده السيف مسلول كأنه الأسد أو الغول، وصاح على جلبهار: أين الحق الذي معك؟ فارتاعت وارتعدت وناولته حقًا ذهبًا أخرجته من ثيابها، فأخذه وفتحه وإذا فيه السم السليماني فأراه لعز الدين وقال: أتدري ما هذا؟ قال: لا. قال: هذا السم أحضرته لك معها لتقتلك به. ثم تركهما وانصرف فندم عز الدين على ما جرى وكان، وعرف نفسه أنه كان غلطان، فخلع هواه وطلب النجاة.

لا ترج يومًا من العشاق سلوانا

ولو أذيقوا عذاب ألوانا

أما إذا أنسوا من قلب من عشقوا

سوء السريرة زال الحب أو هانا

قال الراوي: وكان السبب في دخول الملك في تلك الساعة على تلك الصفة، هو أن أم حكيم دخلت على الملك عمر شاه في تلك اللحظة وقالت له: أدرك ولدك عز الدين، وافعل كذا وكذا وإلاَّ يمت، فقام وفعل الذي فعله وأظهر ذاك الحق الذي فيه السم، وكانت أم حكيم تفرست في جلبهار ذلك العمل وكان الأمر كذلك، وأقامت جلبهار بين جواريها لا تظهر لأحد، وأرسلت وأخبرت السيدة نعاس أنها لا تأمنهم ولا يأمنونها ولا تنتفع بهم ولا ينتفعون بها، ولا بد أن تعود مع القائد المحضر معها إلى قندهار ولا تقيم في هذه الديار.

إذا أبدى الإساءة من توالى

وبان الحقد وانكشف الغماء

فلا يأمنك أن تدنو إليه

ولا تأمنه وانقطع الرجاء

قال الراوي: فأعلَموا الملك باقتراحاتها وما صممت عليه فأحضر القائد الذي حضر معها وأخبره الخبر وأعلمه القصة وقال: لا نريد أن نشق عليها فخذها معك واعتذر لنا عند والدها بأنها هي التي لم ترغب الإقامة، ولا يليق منا أن نحجز عليها بالقهر، وكتب له كتابًا قال فيه: من الملك

عمر شاه ملك خراسان إلى الملك خسروشاه ملك قندهار، أما بعد، فإني لكم من الشاكرين إلى يوم الدين وقد مننتم وتفضلتم ولكن أبى الدهر المعاند قليل الوفا إلاَّ أن يكدر الصفا ويرينا بالعين وإفساد ذات البين، ولكن رغمًا عن الزمان وحدثانه نحن متمسكون بالعروة الوثقى وعن مقام الود لا نبرح ولا نتزحزح، وكريمتكم لم يوافقها هواء هذه الديار فهي عائدة إلى قندهار وقائدكم الجليل معه التفصيل وأرجو قبول الأعذار. وأعطى الكتاب للقائد فجَهَّزَ حاله وأخذ جلبهار ورحل إلى قندهار.

فلما كان في الطريق أرسلت جلبهار أحضرت القائد ليلًا وقالت له: إن الكتاب الذي معك لم يذكر فيه الأسباب وإنما أحال عليك، فوحق رأس أبي إن حكيت له شيئًا من تلك الأسباب لأسعين في هلاكك وفناك، وإنما تقول له إن حقيقة الأمر أن عز الدين كانوا أعدوا له زوجة قبل وصولنا ولما وصلنا أغروه حتى صدني وجفاني وملّني وسلاني بعد أن قضى وطره ونال أربه، وأقبل على زوجته الثانية وانشغل بها وانقطع لها، فأبيت أن أقيم على الضرة وطلبت الرجوع معك، فسلموني إليك لأعود إلى قندهار والتمسوا الأعذار، وإن قلت خلاف ذلك أوقعتك في المهالك. فأجاب القائد مرادها ونقح في القصة وزادها وظن أن بعد العلائق تخفى الحقائق، ولما وصلوا قندهار وتحقق الملك قدوم القائد وجلبهار، وطلع القائد إليه ليسلم عليه سأله عن الخبر فأعطاه الكتاب فقرأه وسأله عن الأسباب، فحكى له ما لقنته جلبهار من تلك الأفكار فتعجب ودخل إلى الحريم وطلب جلبهار وسألها فقالت له: هو كما أخبرك القائد، وهذا يا مولاي الذي كنت أتوقاه وأخشاه ودائمًا

أتحاشاه، فإنه بعد وصولنا تلاهى عني بتلك الحظية وصدَّ عني بالكليَّة بعد أن قضى وطره ونال أربه، ولولا قائدك معي لمت كمدًا، فهنّاها على السلامة وأظهر لها عين الكرامة وصرفها، ولزم الصبر حتى يثبت الأمر.

تثبت واتبع الأنباء كشفًا

فإن القول كالدنيا يدور

فكم نبأ يسوءك وهو إفكٌ

وكم نبأ يسرك وهو زور

قال الراوي: وكان للملك وزير عاقل فاضل محنك قد جرب الدهر واختبر الأيام، فأحضره الملك واختلى به وأطلعه على القصة وأراه الكتاب.

فلما قرأه قال للملك: يا مولاي، إن معنى الكتاب لا يطابق على الذي قالوه وإنما هناك شيءٌ آخر قد غيروه وبدلوه ولا بد من الاستكشاف قبل أن نحكم بالخلاف، فإن الملك عمر شاه ملك جليل وولده عز الدين ولد نبيل وهذا الفعل الشنيع والأمر الفظيع لا يصدر من عاقل ولا يحصل من كامل، ولا بد لهذا الانفصال من أمر ذي بال، فاكتب كتابًا باللوم والعتاب وأتوجه به أنا بنفسي بدون أن يشعر أحد، فإن وجدنا للقول ما قالت جلبهار جاهرنا الملك عمر شاه بالعداوة وكافأناه على تلك القساوة وكان هو الباغي والباغي أظلم وعن قريب يندم، وإن كان الأمر بخلاف عذرنا وصرفنا الأحقاد وأقمنا على الصفاء والوداد، وهذا الذي أراه أيها الملك الكريم والمولى العظيم.

وأعظم نعمة المولى مليك

بحسن مواقع الأشياء خبيرٌ

يدبر أمر دولته وزيرٌ

حكيمٌ في سياستهِ بصيرٌ

قال الراوي: فأعجب الملك هذا الرأي وكتب كتابًا قال فيه: من الملك خسروشاه ملك قندهار إلى الملك عمر شاه ملك خراسان ،أما بعد، فقد عادت جلبهار إلى قندهار وما اكتسبنا إلا الخجل والوجل وخيبة الأمل، وقد أنبأنا القائد الذي أحال عليه الكتاب معرفة الأسباب أن السبب بعض الضرائر شأن الحرائر، وهل ينكر على الحرّة بغض الضرة ولنا أسوة بأشرف النسوة، وقد بعثت وزيري ومشيري ليتثبت الخبر ويستكشف العين والأثر، فإن كان ما قيل صحيح وقد قابلتم الحسن بالقبيح فأذنوا بحرب من الله ورسوله تثيرها دعاء الأسحار ودهاء الأفكار التي لا تقيم على العار من هتك الأعراض في الشهوات والأغراض، وإن كانت الأخرى فلك الأمر فاقضِ ما أنت قاض، وقد بادرت برسولي ورسالتي لكشف الحقائق قبل تكدير العلائق نسأله تعالى الهداية والتوفيق لأقوَم طريق والسلام.

وأعطى الوزير الكتاب وأمره بالسفر إلى خراسان مع السر والكتمان، فاستأذن ونزل وفي ثاني يوم رحل، ولما وصل إلى خراسان نزل على الملك عمر شاه فأكرمه غاية الإكرام واحترمه أكبر احترام، وبعد ثلاثة أيام اختلى الوزير بالملك عمر شاه وبلغه الرسالة وأعطاه الكتاب، فلما قرأه وفهم الرسالة انزعج واضطرب وقال: يا للعجب وهل

يليق أن يكون منا الغدر بعد الوفا والكدر بعد الصفا؟ وقص عليه القصة وكيف نشأت الغصة، وقال له: إني لم أصرح في جوابي بصنع جلبهار سترًا للعار وأحلت على القائد وفي ظني أنه أمين لا يكذب ولا يميل، وها هو عز الدين للآن قد يكره النسوان وامتنع عن الزواج حتى عز العلاج، وهذه هي الحوادث التي جرت وتمت فتثبت ما شئت أن تتثبت. فلما علم الوزير حقيقة الخبر استقال واعتذر وقال: يا مولاي، إن الملك خسروشاه باقٍ على العهد محافظ على شروط الود، وما أرسلني والكتاب إلا ارتيابًا برسالة القائد وتعبيره الفاسد، والحمد لله قد ظهر عذرك فلا لوم ولا تثريب عليك اليوم، وقد علمنا أن جلبهار لم تخرج من قندهار إلا كرهًا والكاره يقدم على المكاره، وإن عز الوفاق طاب الفراق، ثم إنه أطنب في الاعتذار وأحال على نفوذ الأقدار.

إذا اتضح العيان لأي شخصٍ

وبان الحق من بعد الخفاء

تساهل في القضية مستقيلًا

وأبدى العذر عن فعل القضاء

قال الراوي: فلما سمع الملك عمر شاه ما قاله الوزير وما أبداه سرت عوامل الغيظ عنه وبدت لوامع القبول منه، وقال للوزير: بلغ الملك خسروشاه بالذمة والأمانة فأنت أهل التقوى وأهل الديانة، وكتب له كتابًا مختصرًا قال فيه بعد العنوان: الجواب مع الوزير ولا ينبئك مثل خبير. وأعطاه ذلك الكتاب فاستأذن في السفر فأذن له فودعه ونزل وجهز ورحل إلى قندهار في ذلك النهار، ولما وصل وقابل الملك خسروشاه

أوضح له عذر عمر شاه وحدثه بالخبر وتلطف في التعبير بلا تغيير، واعتذر لجلبهار بأنها خرجت على كره وربما كان هذا السم لها إن وجدت ضيم، والحمد لله أن الذي جرى وصار فيه شيء من العار ومكتوم تحت طي الاستتار، فلما سمع الملك خسروشاه حديث الوزير انصرف عنه الغضب، وشكر الوزير على فضله ودرايته وحسن ما أبداه من عنايته.

ومن أضحى سفيرًا بين قوم

فإن الكل أضحوا في زمامهِ

لأن الشر ينتجه هواه

وإن الخير يُجنى من كلامه

قال الراوي: وانصرف الوزير وجلس الملك يفتكر في جلبهار أن عز الدين قضى منها الوطر وقول الوزير أنه لم يمسها بشر، وارتاب من تلك الإشارة في البكارة، فصبر وتجلد وانتظر ما يتجدد، وأمر بالحصر على القصر وأن تغلق أبوابه من بعد العصر.

وفي حكم العفاف يصان عرضٌ

إذا ابتعدت رجال عن نساء

وأما في الفجور فليس يجدي

ولو أصعدتهنَّ إلى السماء

قال الراوي: وشكت السيدة نعاس لأم حكيم من اعتداء جلبهار على عز الدين وقولها إنه أتاها كما نبأت أباها، وقالت: إن هذه العبارة تفيد عدم البكارة، وأخشى أن تكون على ريبة وتأتي بمصيبة لا يغسلها النهر ولا يزيلها الدهر. فقالت لها أم حكيم: لا بأس عليك قري عينًا فسأكفيك هذا الغرض الذي وجب وافترض، فأذني لي أتوجه إلى قندهار حتى أكتشف حقيقة جلبهار، فأذنت لها فجهزت نفسها ورحلت، ولما أن وصلت اكترت دارًا وهيّأتها وأقامت فيها، وأظهرت أنها امرأة من الحجاز وأشهرت نفسها بالتنجيم والترسيم ومعرفة ضرب الرمل والعلم القديم، فشاع أمرها وانتشر ذكرها وقصدتها الناس من جميع الأجناس، وصارت تعالج من الآفات وتخبرهم بالمغيبات مما تلتقطه من أفواههنَّ وتستنبطه من حديثهنَّ وما تتفرسه في الهيئات وتستنتجه من عقد النيات، فتشفي المرض وتصيب الغرض بدهاء عجيب وذكاء غريب مع السكينة والوقار وسيمة الأخيار الأبرار، ولا تقبل على ذلك أجرًا لا سرًا ولا جهرًا.

ترى الإنسان بالتنجيم مغرّى

شديد الحرص في كشف الغطاء

يدور الأرض يكتشف الخبايا

فإن ضنَّت تطلع للسماء

قال الراوي: إلى يوم من الأيام حضرت أمة سوداء كأنها الليل أو الهم والويل، ومعها رغيف وفطيرة وصحفة فيها حريرة، وترامت على رجلي أم حكيم تقبلهما وأفرطت في الخشوع والخضوع وبكت بالدموع، فقالت لها أم حكيم:

ما همك وما غمك وما هذا الذي في كمك؟ فقالت الأمة: أما الذي في كمي فهو غذائي أقدمه لكِ هدية لتسمعي لي القضيَّة، وأما همي وغمي والذي جرى لي من بعد ما فارقت أمي، هو أنني متزوجة بعبد أسود كان يحبني وأحبه اسمه مسعود، وكان يخفر بستان سيده فعثر ذات يوم بابنته في البستان فأزال بكارتها وافتضها، وحضر وأعلمني فأظهرت له الفرح حتى انشرح، وكانت البنت ماتت أمها ولم تجد من يحمل همها وغمها، فلما كبرت واشتدت وتحركت شهوتها اشتهت مسعودًا فشاغلته حتى مكنته منها وصارت لا تصبر عنه ولا يصبر عنها، وعملت له مفتاحًا لباب القصر من جهة البستان ليتوصل إليها في الظلام والناس نيام، وكان كلما جرى بينهما يحكي لي عليه فأحسن إليه ولا أنكر ولا أعترض وأوافقه على الغرض خوفًا من أن يغضب مسعود ويذهب ولا يعود.

وإذا بليت فكن بحر مُبتلى

يجديك عذرًا عند كشف غطاء

كشف السرائر للعبيد مذلة

وفضيحة في عالم الأشياء

قال الراوي: وكنت قانعة بقربه في النهار وأما في الليل فسميرة الأفكار، إلى أن جرت حوادث نبهت أباها فأساء الظن وارتاب وأغلظ الحجاب وسد الأبواب إلا الباب الكبير الذي كان يلازمه الخفير، فأخذت مسعود وألبسته ملابس الإماء السود وجعلته من إماء الحاشية وجواري الخاصة وجعلت مكان الحبس خلوة ولذة وأنس، ولم تطلع على ذلك الأمر إلا حاشية السر، وقد أخذتْ مسعود وتركتني أتقلب على الجمر

من القهر والفقر، وقد سمعت بسرّك فأتيتك بهديتي حسب طاقتي لتعملي لي عملًا يبلغني المقصود ويجمعني بمسعود.

فتنبهت أم حكيم للأمر وقالت لها: قد همني همك وغمني غمك وقد رد الله عليكِ زادك ومَنّ عليكِ وزادك، وسأعمل لكِ عملًا ما عملته لغيرك، ثم تناولت درجًا وخطت خطوطًا وسألتها عن اسمها فقالت مرجانة وعن اسم أمها فقالت ريحانة، وعن اسم زوجها فقالت مسعود وعن اسم أمه فقالت جنود، وعن اسم خليلته فقالت جلبهار وعن اسم أمها فقالت جلهزار، فسطرت في الدرج ما دب ودرج، وألقت البخور حتى فاح الأرج، ثم قالت: أبشري يا مرجانة يا بنت ريحانة فقد انقضت حاجتك وزالت كربتك وسيأتيك مسعود ويبقى ولا يعود، وبعد عشرة أيام يتم هذا المرام ففرحت الأمة بهذا الوعد الحسن وزال عن قلبها الهم والحزن، وقبلت يد أم حكيم وقدمت لها تلك الهدية فأكلت منها يسيرًا وأعطت الأمة شيئًا كثيرًا وثيابًا ودنانيرًا، وانصرفت راضية مرضية رابحة القضيَّة.

إذا رام الإله قضاء أمر

تهيأت الدواعي والبواعث

وأحدث كل أمر فيه فوز

وجاء الفوز في تلك الحوادث

قال الراوي: أما أم حكيم فبعد نزول الأمة من عندها والفوز بمناها وقصدها، أعدت هدية سنية وطرفة حجازية وقصدت قصر الملك وسألت عن مقر زنون الخصي كبير

خصيان القصر فدلوها عليه، وكان ذا عقل وفضل ودين واعتقاد في الصالحين، فاستأذنت ودخلت إليه وسلمت عليه وقالت له: إخوانك العزاز خدم حجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام يقرِئونك السلام وقد أرسلوا معي هدية حجازية لجانبك العالي للود والتذكار وإن بعدت الدار، ثم قدمت له تلك الهدية في ظروف بهيَّة فيها الدر والمرجان وقلائد العقبان والعود والعنبر ونفيس المسك الأذفر وأقمشة هندية وأردية صينية وتمر وبلح ونحو هذه الملح، فلما نظرها زنون غدا بها مفتونًا وقبلها، وأراد أن يعطيها شيئًا من المال فأبت وقالت: نحن أهل بيت لا يأخذون على تأدية الأمانة لأهلها أجرًا، ولكن إن زرتنا وزرناك وعرفتنا وعرفناك، هنالك نقبل الهدية ونشكر النيَّة وإلا فلا.

ومن يرد السلامة واستوى

على عرش القلوب بكل خفه

يلاقي من يلاقيه ببشرٍ

ويُصحب من يصاحبه بعفَّه

قال الراوي: فتعجب زنون من علو همتها وعظم مروءتها وكبرت في عينه، فقال لها: يا مولاتي وأين دارك حتى أزورك؟ فوصفت له الدار والجار واستأذنت وراحت إلى دارها وخلعت إزارها وجلست في انتظار موعد زنون للسر المكنون، وكان زنون هذا له قدر ومكان لموضعه من الأمان وهو الذي ربّى الملك صغيرًا وخدمه كبيرًا ونافذ الحكم والأمر على جميع من بالقصر، فلما حضرت جلبهار من خراسان أحضره وأطلعه على القصة وقال له قد رابني من أمر جلبهار

ما رابني ولا سبيل أن نحكم بالغيب بدون ظهور عيب، ولكن شدد الحجاب وسد الأبواب وتجسس وتحسس عساك تقف على أثر أو شيء من الخبر، فأجاب وامتثل وأجرى ذلك العمل.

ولما زارته أم حكيم وانصرفت سأل عنها بعض المترددين فبالغوا في سرها وأطنبوا في ذكرها حتى تمكن فيها اعتقاده وصبا إليها فؤاده، وفي ثاني يوم ركب لزيارتها ودخل إلى حارتها وسأل عن الدار فوجدها مملوءة بالزوار، فاندرج في سلك الزائرين وجلس مع الجالسين فلما رأته أم حكيم أسرعت في صرف الجماعة من القاعة حتى خلا المكان، فقامت إلى زنون وسلمت عليه وأظهرت مزيد التودد إليه، وجلست تحادثه وتسامره وتتحفه بنوادر غريبة وأحوال عجيبة عن الصالحين وأهل التقوى والدين حتى أفاق من الدهشة واستأنس بعد الوحشة وصفت السرائر وانجلت الخواطر، فسألها عما هي فيه وعن الذي تجريه، فقالت له: أنا من بيت أهل لهم ثروة ونعمة وعندهم شيء من المعرفة والحكمة، فنحن نبذل ما لدينا في الخير لا في الشر ولا نطلب على ذلك شيئًا من الأجر، ولما عرف زنون أنها من الألباء فرح وقال هذه قصدي والمرام ورب رمية من غير رام.

تميل النفس عن طبع إلى من

يجيل الفكر في كشف العواقب

إذا رمت القلوب إليك تصبو

فليس لها سوى ذا الفن جاذب

قال الراوي: فقال زنون لأم حكيم عندي أمر يمكنك أن تنظري لي فيه وتكشفي خافيه بدون أن أذكره أو أبديه؟ فقالت: إي وأبيك سترى ما يرضيك ففضلك علينا بوصولك إلينا، ثم أخرجت صينية من فضة ولها مكبة كأنها العقبة وداخلها مجمرة وصورة مصورة، فأعطت زنون تلك الصورة وقالت: بح بما في سرك من المراد لهذا الجماد، وأنا خارجة من المكان. ثم تركته وخرجت، ففعل كما أمرت ورجعت، فأخذت تلك الصورة ووضعتها في الصينية وأوقدت المجمرة ووضعت فيها البخور واستحضرت قرطاسًا لا شيء فيه وأرته إلى زنون ووضعته في الصينية ووضعت على الجميع المكبَّة، وتلك القبة وكانت مصنوعة من طبقتين بالتجويف المحكم ومملوء ذاك التجويف بالزئبق، وجعلت أم حكيم تقرأ وتهمهم حتى اشتدت الحرارة بالمكبة فتحرك الزئبق من الحرارة فاضطربت القبة، وكان كلما زادت حرارة المجمرة زاد اضطراب القبة، وأم حكيم مشغولة بالعزيمة والصيغ الكريمة، وزنون يتعجب من ذاك الاضطراب الذي لم يدرِ له من أسباب، فلما خمدت النار وسكنت الحرارة سكن اضطراب القبة، فأفاقت أم حكيم مما كانت فيه ثم كشفت عن المكبة وتناولت القرطاس من على الصورة وإذا هو مكتوب ومسطور كأنه من صحف الزابور، فناولته لزنون فقرأه وإذا فيه: إن كنت زنون أو مولاه المغبون ففتاتكم زانية وعليكم جانية وغريمكم مسعود الأسود الأجرود فالتمسوا الغريم من بين الحريم. فلما قرأ العبارة وفهم الإشارة ارتعد واضطرب وكاد يقتله العجب، فأخذت منه القرطاس وقرأته وقالت له: مَن تلك الفتاه وإلا ضل الخادم وتاه؟ فقال: ما تاه ولا ضلّ ولكن هل يمكنك تمام الحل وتهتدي إليها بدون أن أخبرك عليها؟ قالت: نعم إذا أذنت. فأعادت الصينية وتلك

العملية وأخذت الصورة بيدها وقالت لها: تسألك ليلى ويسألك زنون عن تلك الفتاة من هي تكون، ووضعتها في الصينية ووضعت عليها قرطاسًا نقيًا وأوقدت المجمرة ووضعت البخور وغطت الجميع بالمكبة، وأخذت في العزيمة والطلاسم القديمة فاضطربت القبة واشتد اضطراب المكبة ثم سكنت، فكشفتها أم حكيم وأخذت القرطاس وناولته إلى زنون قبل أن تقرأه وإذا فيه: يا سائلًا كنفوش أسير الطلاسم والنقوش فتاتكم جلبهار بنت قندهار صاحبة الإثم والعار فكفوا عنا النار. فبهت وسكت وحار في أمره واضطرب في سره. فقالت له: أتطلعني على الدرج أم تمزقه بلا حرج؟ فقال لها: قد آمنت بآياتك وأقررت بمعجزاتك وما بقي عندي شك ولا ريب في أنك تستخرجين الغيب.

يلقى النبيه بحذق من مهارته

أسنى العجائب في سمع وفي بصر

حتى يخال الذي بالعين ينظره

سحرًا من الجن أم سرًا من البشر

قال الراوي: فقالت أم حكيم لزنون: إن شت ساعدناك وأعنّاك ودبّرناك فيما عناك، وإن ارتبت فينا كففنا عما لا يعنينا. فقال لها: حيث ظهر لي ما قد ظهر من معرفتك الخبر بدون أن يخبرك بشر، وليس وراء ذلك إلا التسليم فدبرينا في هذا الشأن العظيم. فقالت له: إذا سمعت مني وأخذت عني أرشدتك الطريق وبالله التوفيق. فقال زنون: أنا لك سامع مطيع شاكر على هذا الصنيع، فدبرينا وأتمي الجميل فقد صار عليك التعويل، فعرفته ما يصنع بالدقة والتحكيم وعلمته حتى صار كأنه أم حكيم، ثم استأذن وانصرف.

وكانت تلك الأوراق مهيأة من قبل ومكتوبة بماء البصل والنشادر الذي لا يظهر تأثيره إلا بالحرارة. وذهب زنون وعرض للملك أن القصر يلزمه ترميم من الداخل فأمره بإجراء ذلك، فجمع الصناع وأخذ في العمل وجعل القصر أقسامًا وصار يخلي القسم فينهيه، ثم ينقل إليه القسم الآخر وهكذا حتى وصل إلى القسم الذي فيه جلبهار وعائلتها فجعله قسمين وحصرهم في قسم وأجرى البناء في القسم الآخر، وصار يتردد ليستريح أو ليستقي ماءً ويتودد إلى الإماء السود ويأنس بهن ويجلس عندهن، ويقول لهن: أنتن أبناء جلدتي وجنسي ولا يطيب إلا بكم أنسي ولا بد أن أعمل لكم يومًا أسقيكم فيه مريسة وأطعمكم هريسة، وصار كلما دخل وخرج يأتي لهن بالطرف من الفواكه والثمر فيتجارين عليه ويتناهبن الذي في يديه إلا واحدة كانت إذا دخل زنون تتدارى وتتوارى وتتحاشى ولا تتجارى وتلحقها الكآبة كأنها مرتابة.

تدل عليه هيئته الغريب

كما عند الصفا كاد المريبُ

وذو النظر السليم إذا تأنى

تحقق بالفراسة ما يريبُ

قال الراوي: فتغافل زنون عنها فيما ظهر وسرح وراءها النظر، وصار يستر مراقبة حركاتها وسكناتها ولا يريبهم في الحديث حتى تأكد أنه مسعود وهو في زي الإماء السود، وتأمل ودقق حتى تحقق وانتهت العمارة ولم يرتبن منه بأدنى إشارة.

وفي ثاني يوم حضر زنون إلى محل جلبهار في أول النهار واستأذنها في إمائها السودانيات أن يذهبن معه إلى مكانه، فإنه قد وعدهنَّ أيام العمارة أن يعمل لهنَّ وليمة كولائم بلادهم ويسقيهنَّ المريسة ويطعمهن الهريسة. فقالت له: ولم لم تدعُني ولم تدع جواريّ الحسان وخصصت بدعوتك السودان؟ فقال: لأنهنَّ من جنسي وأراهنَّ كنفسي، وإلا فمولاتي قدرها أجلّ من أن أطمع في زيارتها وجواريها وحلولها مكاني لخسّة قدري وهواني، وإذ قد علمت أنك تسمحين فسأعمل لك وليمة ذات قدر وقيمة وأدعوك ومن تحبين وتختارين من النساء والجواري وتقمن عندي في انشراح من الصباح إلى الصباح، وأما في هذا اليوم فقد عقدت النية على بر الجنسية، فإن سمحت مولاتي في هذا اليوم تكون قد أتت فضلًا كبيرًا وجبرت قلبًا كسيرًا وتكرّمت على عبدها الأسود، وإذا انقضى هذا اليوم فيكون إن شاء الله العود أحمد.

فلم تجد بدًّا من التسليم بعد لين هذا الكلام، وأمرت بذهاب الإماء السودانيات على التمام وكانت عدتهن عشرة معدودة وبينهنَّ تلك الأمة مسعودة وغرّها من ذاك الخبيث أنه أتقن التأنيث، وقالت في نفسها لا ننغّص على زنون يومه لئلا يثير الحقد ويقعد لنا بالضد.

وذو العلل الخفية كم يداري

ويظهر خلة السهل الموافق

يداهن عن أمور يتقيها

ألا إن الحوامل لا تسابق

قال الراوي: وكان زنون قد أعد قاعة للجماعة وأكثر فيها من الهريسة والمريسة والأطعمة النفيسة والفواكه والأثمار وجميع الأزهار، وأعد المولدات بالمزاهر والآلات، فحضر زنون بالعشرة فوقعوا على تلك الهريسة والمريسة والأطعمة النفيسة، وأقاموا سوق اللهو والطرب وخرجوا عن حد الأدب، وكلما رأت الإماء زنون يعجبه ذلك يفرحن ويمرحن ويرتعن ويلعبن ويكثرن من شرب المريسة ويقلن ليلة أنيسة، وما زلن كذلك إلى نصف الليل فكللن وملن وسطت عليهنَّ المخدرات فوقعن كالأموات، فقام زنون وصرف المولدات والخدم وأغلق باب القاعة على من فيها ورجع لمرقده، حتى نام اليقظان وفتح القاعة واحتمل مسعودًا من بين الإماء وذهب به إلى مكان آخر، وكشف عليه وإذا هو مسعود حارس البستان بعينه وقبحه وشينه، فلما كشف وتحقق رماه في المطبق وأغلق أبواب المكان وعاد لمرقده كما كان.

وكم نالت مآربها أناسٌ

بسرّ الكأس والخمر العتيقِ

وصادت مـن أرادته بأنسٍ

فأمسى وهو في قيدٍ وثيقِ

قال الراوي: ولما أفاقت الإماءُ من سكرهنَّ عند الصباح لم يجدن مسعودة فسألن عنها فلم يعرفن لها خبرًا، وبلغ زنون فجد في البحث والاستقصاء وأظهر اعتناءه الأقصى ثم عاد ولم يجد شيئًا، فقال لهنَّ أظن مسعودة أبقت وغلب عليها طبع السود ولكن سترجع وتعود إن كلّت من السير وملّت من الغير، فقولوا لمولاتي لا تهتم ولا تحزن فسأهدي إليها

أمة أحلى وأحسن. فقمن وذهبن إلى مولاتهنَّ وحدثنها بحديث اليوم وما لاقين من الأنس عند القوم، وأخبرنها بخبر مسعودة المفقودة وما قاله زنون، فاستشعرت جلبهار بالقصة وتجلدت لتلك الغصة، وقالت مسعودة وغير مسعودة وكل موجودة ومفقودة فدى رأس أبي، ثم دخلت مكانها كأنها تستريح وأخرجت من بقية ذاك السم الذي صنعته لعز الدين وتناولته ورقدت في فراشها فماتت في الحين.

يا صانع السمِّ في الدنيا ومتقنهُ

يكفيك ما صنعت يمناك يكفيكا

فربما قد نجا من كنت تقصدهُ

وكان مرجع ما أتقنت في فيكا

قال الراوي: ودخل الليل فلم يجسر أحد أن يوقظها فباتت للصباح فلم تستيقظ فأنكروا الأمر، ودخلوا إليها ليوقظوها وإذا هي جسم بلا روح فعلا الصياح، واستيقظ الملك وتنبهت الناس وشاع الخبر أن جلبهار ماتت بغتة بداء السكتة، فانزعج الملك من هذا الخبر وصاح: وابنتاه، وصاحت الجواري: وامولاتاه، واجتمعت الناس من جميع الأجناس وانقلبت قندهار لوفاة جلبهار، وحضر زنون وهو يبكي ويصيح وامولاتاه واسيداتاه، ثم وقف على تجهيزها فجهزوها وخرجوا بها في مشهد جليل وموكب جميل تكتنفها الملوك والأشراف كأنها العروس في الزفاف، وصلوا عليها ودفنوها في مقابر الملوك وانتظمت في تلك السلوك.

إذا ما النفس أدركها القضاء

وأذهب حسن بهجتها الفناء

فيومٌ لو حسبت وألف عامٍ

على من حل حفرته سواء

قال الراوي: وأقام الملك خسروشاه أبو جلبهار حزينًا عليها مُرَزَّى تعزيه الناس فيتعزّى ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع دخل عليه زنون في خلوة وقال له: يا مولاي، أترتاب من عبدك زنون. قال: لا. فقال: أريد من مولاي الملك أن يحضر إلى مكاني في نصف الليل وحده لشأن عظيم وأمر ذي بال لا يسعني الكلام فيه إلا وقتها. فأجابه الملك وأمره أن ينتظره ولا يغلق الأبواب، فلما كان نصف الليل وإذا بالملك في مكان زنون فاستقبله زنون وأجلسه في المكان الذي فيه المطبق، وقال له: اعلم يا مولاي أن الله تبارك وتعالى قد أنعم عليك بنعمة يحق لها الشكر بطول العمر وهي موتة جلبهار التي وافاها المقدور قبل أن ينتهك المستور، وحدثه بحديث الحكيمة وما أبدته من الأمور العظيمة والفنون القديمة، وكيف أرشدته وعلمته حتى صنع ما صنع بكل تحكيم وإتقان وقبض على الغريم بدون أن يشعر به إنسان حتى استغرق الكتمان حد الإمكان، ثم قال: وها هو يا مولاي عبدك مسعود في المطبق الذي تحت رجليك فافعل به ما تشاء فإنه في قبضة يديك، ثم فتح المطبق وأخرج مسعودًا في القيود فضربه الملك بسيفه فقتله وعجل أجله، وأمر زنون بأن يلقيه في المطبق ويردم عليه ويسبك بالحجر حتى يخفى الأمر.

القتل أيسر ما تلقاه من ملك

لعبد سوء إذا ما خان أو مانا

لا تسلم الرأس من قطع وإن عظمت

إن زاحمت بغرور الجهل سلطانا

قال الراوي: ثم انصرف الملك إلى مكانه وشيعه زنون وعاد فسرى عن الملك ما كان يجده من الحزن والأسف وعاد لرشاده ونظر في مواقع الشرف ونام، وفي الصباح أحضر زنونًا وقال له أريد أن تحضر إلي تلك الحكيمة فنزل لإحضارها من دارها فوجد (الدار قفرًا والمزار بعيدًا) فسأل جيرانها فقالوا: رحلت منذ ثلاثة أيام فعاد وأخبر الملك، فقال له: لا تقل لي حكيمة ولا فنون قديمة هذا أمر مدبّر من قبل أن يظهر وقد فات ما فات وهان الأمر والذي أقوله الآن نعم الصهر القبر.

إذا ما كنت في بنت مصاهر

فأحسن ما تزف إلى المقابر

فإن البنت مسكنة وخزيٌ

ورفع الخزي من أسنى المفاخر

قال الراوي: أما أم حكيم فإنها لما سمعت بوفاة جلبهار في ذلك النهار أيقنت بنجاح الأمل وتمام العمل، فوهبت ما لديها من المتاع للأتباع ورحلت من تلك البقاع، ولما وصلت إلى خراسان دخلت على السيدة نعاس فلما رأتها فرحت بها وضمتها إلى صدرها وقبلت رأسها، وقالت لها: قد أقلقني

غيابك، فدعت لها وحمدت الله، ولما خلا المكان حدثتها بحديث جلبهار وكيف قضى الإله رب العالمين أنها تموت بالسم الذي أعدته لعز الدين فحمدت الله السيدة نعاس وشكرت أم حكيم على ما فعلته من الإتقان والتحكيم، وبلغ الملك عمر شاه قدومها ففرح وسر وطلبها وسلّم عليها، وأخبرته الخبر فلحقه السرور وتعجب من تلك الأمور التي تدهش العقول وتعجز الفحول، ثم قال: قد خلصنا من اللوم عند الملك خسروشاه والحمد لله. فقالت السيدة نعاس: لكن وقعنا في ورطة لجاج عز الدين في عدم الزواج فماذا يكون العلاج. فقالت أم حكيم: قد فرغنا من الأهم وسننظر في المهم إن شاء الله. وقضوا وقتهم مسرورين فرحين بقدوم أم حكيم.

لقد جار الزمان على بنيهِ

وأعلن في إساءتهِ وجاهر

إذا ما فارقوا همّا قديمًا

رماهم من حوادثـه بآخر

قال الراوي: وبعد أيام من قدوم أم حكيم اختلت بالسيدة نعاس وقالت لها: أشرعي في استعداد وليمة ومأدبة جسيمة، وأظهري أن ذلك كان نذر عليكِ لسلامة ابنك من المهالك، وتَأَخَّر وفاؤه لحضوري وقد حضرت وما بقي إلا الوفا، فشرعت السيدة نعاس في وفاء النذر حسب الأمر وفرقت الخصيان وأخصاء النسوان على دور الأمراء والأعيان يدعون نساءهم إلى ذلك المجمع الأنيس في يوم الخميس، فأجابت جميع الناس دعوة السيدة نعاس وتنافسوا في الاستعداد لذلك النهار والذي عنده اشترى والذي ما عنده

استعار، واستعدت أم حكيم لهذا اليوم العظيم وكثرت من المآكل والمشارب وفنون الملاهي والملاعب، وزينت القصر والبستان وأتقنت كل شيء غاية الإتقان وجعلت مجالس عديدة منتشرة في الأرض ومفترقة بعضها عن بعض، وكان للسيدة نعاس إيوان مطل على البستان كأنه غرفة من غرف الجنان فهيَّأته أم حكيم وزينته وكست جدرانه الديباج المنسوج بالذهب الوهاج ونصبت فيه تختًا من الذهب الأحمر مرصعًا بالدر والجوهر يخطف البصر ويدهش من نظر، ولما أتى الخميس واليوم الأنيس لبست السيدة نعاس لبسها الفاخر وغرقت في بحر من الجواهر وجلست على ذاك التخت وعن يمينها السعد وعن يسارها البخت.

وأحس ما يروق الطرف يومًا

جمال الملك في ملك الجمال

وكم حسنٌ بلا ملك ولكن

جمال الشيء يحسن بالكمالِ

قال الراوي: وتواردت النساء فصارت الخصيان يستقبلهنَّ من باب القصر ويطلعوا بهنَّ والقهرمانات يستلمنهن ويأتين بهن إلى الغرف المعدات لهنَّ، فيجلسن برهة ويخلعن إزرهن ويسترحن، ثم يقمنَ إلى مقابلة السيدة نعاس فيدخلن عندها ويقبلن أهداب الأثواب ويجلسن، وتأتي الوصائف بصحائف الذهب فيها الطيب فيدرنَ عليهنَّ ويتطيبن ويتحادثن برهة ويقمن إلى تلك الغرف، وهكذا كان شأن الاستقبال ولما تم الجمع قدَّمت الولائد أنفس الموائد عليها من فاخر الطعام ما يليق بالمقام، فأكلن وشربن وتلذذن وطربن وكانت أم حكيم قد

نشرت أرباب الملاهي والملاعب في أرجاء البستان، وكلهنَّ نسوان وكأنهنَّ من بنات الشيطان فمنهنَّ من تلعب على الحبل، ومنهنَّ من تحجل على الطبل، ومنهنَّ من تسحر الأعيان وتجعل العصا كالثعبان، ومنهنَّ من تقفز وتهمز ومنهنَّ من بجفونها تغمز، والزمرات والراقصات والمطربات على الآلات واللاعبات الخيال الجاعلات لكل شيءٍ أحسن تمثال.

كم في الملاعب من قوم إذا لعبوا

سبوا عقول الورى من فرط إتقان

تخالهم في خلال اللعب أنهمُ

جانٌ من الإنس أو إنس من الجان

قال الراوي: ونزلت النساء والبنات المدعوات إلى البستان وشطحن ومرحنَ كأنهنَّ الحور الحسان يسرحن في الجنان، وقد ارتفعت الكلفة وتمكنت الألفة، وصرنَ يمشين أسرابًا وأترابًا يتصاحبن مصاحبة الأحباب ويدرن يتفرجن على الألعاب، وقد عم السرور وانشرحت الصدور، ولما طاب الأنس وزالت الشمس دخلت أم حكيم على السيدة نعاس وجلست معها وقالت لها: نظرت جميع بنات الأمراء والأعيان وجميعهم بين يديكِ في البستان، فاخطبي لولدك عز الدين من تستحسنينها، ومن أعجبتك فامتحنيها وانظري ميلها لأي المشارب وهواها لأي الملاعب، وترقبي حركاتها وسكناتها ينكشف لكِ خافيها وينجلي لك ما فيها، فإن بارتفاع الحشمة والتكليف يظهر الطبع اللطيف من الطبع العنيف.

كمين النفس يظهر في هواها

إذا أمنت رقيب الاحتشام

إذا انفصمت عرى التكليف يومًا

تجردت الطباع من الأنام

قال الراوي: فقالت السيدة نعاس لأم حكيم قد نظرت كل من حضر من البنات فلم أجد فيهنَّ أبهى ولا أحلى من ابنتين نظرتهما وسألت عنهما، فقيل لي أنهما ابنتا قاضي القضاة عبد السلام بن الأعزّ، ولكن لا أدري ما وراء ذلك البهاء من الأخلاق، فاجلسي معي نتأمل من البستان واحكمي بنظرك أنتِ في هذا الشأن، فجلست معها ترقب البنات وتختبر الاثنتين فوجدتهما أبهى من حضر كأنهما الشمس والقمر، وقد تلازمتا واعتزلتا الناس وتركتا تلك الملاهي والمناهي وجلستا ناحية من البستان حيث لا يراهما إنسان، وجعلتا تتحدثان وتنشرحان بالكلام والتأمل إلى الأشجار والأزهار وأوضاعها العجيبة وأشكالها الغريبة، وتتباحثان في أغصان البستان كيف تسقى بماء واحد وتخرج مختلفة الألوان، وتتذكران في عظيم الإبداع وحسن الاختراع، وتسبحان الصانع الذي صنع فأتقن وخلق فأحسن.

أهل الكمال وأهل العقل إن وقفوا

على الملاهي تجافوا القوم واعتزلوا

واستأنسوا بحديثٍ أو مذاكرةٍ

في قدرة الله لا لهوٌ ولا غزلُ

قال الراوي: ولما نظرت أم حكيم ما نظرت من البنتين ورأتهما تسران القلب وتقران العين، نبهت السيدة نعاس وقالت لها: قد عثرتِ بحاجتك ونلت أمنيتك إن شاء الله فهاتان البنتان سيدتا الحسان وهما اللتان عليهما تدورين فالكبرى لشاور والصغرى لعز الدين، ففرحت السيدة نعاس وقالت لأم حكيم: لكن ما نفعل في عز الدين ولجاجه وتصميمه على عدم زواجه؟ فقالت: إذا فرغنا من الذي نحن فيه سأصرفهُ عنهُ وأثنيهِ، وإني سأحضر لكِ بالبنتين إلى هنا فافعلي معهما كذا وكذا ولقنتها ما تفعل، ونزلت إلى البستان وصارت تمر على الجماعات جماعة جماعة وتحييهم وتبلغهم سرور السيدة نعاس بهم وبأنسهم، فيدعون لها وللملك حتى وصلت إلى المكان الذي فيه البنتان فسلمت عليهما وحيتهما وبلغت تحية السيدة نعاس، ثم قالت لهما: إن مولاتي رأتكما معتزلتين عن الناس ولا رغبة لكما في التلاهي بالملاهي، وهي وحدها في الإيوان وأنتما وحدكما في البستان، وتشتهي أنكما تكونان نديمتيها في هذا اليوم حتى تأتنس بكما أتم استئناس إلى انقضاض الناس، فأجابتاها وقامتا معها وذهبتا إلى السيدة نعاس فدخلتا عليها بغاية الأدب وقضتا من الخضوع والخشوع ما وجب، ففرحت بهما وسلمت عليهما وحيتهما وأصعدتهما على ذاك التخت، وأجلستهما بجانبها وصارت تتحدث معهما وتسامرهما وتختبرهما، فوجدت أدبًا وعقلًا ومعرفةً وفضلًا، وهممًا عليَّة وأخلاقًا مرضيَّة مع ذاك الجمال والكمال.

وفضل العقل أفضل كل فضلٍ

إذا ما زانه حسن السلوكِ

يزيد العقل صاحبه جمالًا

ويجلسه على تخت الملوكِ

قال الراوي: وأحبتهما السيدة نعاس حبًّا شديدًا لعقلهما وأدبهما والفضل الذي وجدته بهما، فجالت معهما في كل باب ببسطٍ وانشراح حتى أتى وقت الرواح، وكان اسم الكبيرة نفوس واسم الصغيرة شموس، فألبست السيدة نعاس كلًّا منهما خاتمًا ثمينًا وقالت لهما: حيث أنكما نادمتماني في يومنا هذا فهذان الخاتمان هدية مني إليكما، فقبلتا منها وقبّلتا يدها، ودخلت الناس على السيدة نعاس للموادعة فوجدوا شموس ونفوس جالستيْن على التخت وهما واقفتان من تحت فغبطهما الجميع على ذاك المقام الرفيع، ودخلت أمهما وفرحت بهما وزاد سرورها وانشرح صدرها، فأقبلت عليها السيدة نعاس كل الإقبال وأطنبت في وصف ما في ابنتيها من العقل والكمال، فشكرتها أمهما على تلك التعطفات والتلطفات ودعت لها وللملك بطول العمر ودوام العز في الخير والمبرات والأنس والمسرات، وأخذت ابنتيها وانصرفت فلما وصلن الدار أخبرتا أمهما بالخاتمين، وحين نظرتهما اندهشت من حسنهما وأعجبت بهما وفرحت، ولما حضر أبوهما أخبرته زوجته بحديث البنتين وما وقع لهما من القرب والاستئناس عند السيدة نعاس، وكيف أهدتهما الخاتمين الثمينين وما قالت وما عادت، فلما سمع قاضي القضاة عبد السلام بن الأعز هذا الحديث تفكر قليلًا ثم قال لزوجته: احرصي على أن لا ينظر لابنتيك نظر ولا يراهما بشر فقد خطبتا بلا مين وربطتا بالخاتمين.

كم في الظهور مليحةٌ

بارت على أهل السيادة

وكمينةٌ في خدرها

تأتي وتخطبها السعادة

قال الراوي: ففرحت أمها غاية الفرح واتسع صدرها وانشرح، وأخفتهما عن العيون في حرز مصون كالدر المكنون، وكانت نفوس أكبر من شموس بسنتين ولكن لم تتميزا بعضها عن بعض في الطول ولا في العرض، تتشابهان حسنًا وجمالًا وقدًا واعتدالًا، ولم تختلفا إلا في الاسم وبعض الشيء من الرسم.

غصنان قدًا ولكن حلَّ صدرهما

رمان نهدٍ وورد الخد قد بهرا

صغرى كشمس وكبرى قد حكت قمرًا

والشمس لا ينبغي أن تدرك القمرا

قال الراوي: بعد يومين من معرض الحريم غابت أم حكيم وحضرت إلى السيدة نعاس بقفص من خشب الساج المحبوك بأسلاك الذهب الوهاج، وداخله زوج حمام أحمر كالياقوت بهيّ المنظر رخيم الصوت، وأعطته لها وقالت: اهديه لعز الدين فإنه حمام من الهند أصله كريم وصوته رخيم مهذب مؤدب لا يقذر الأعشاش ولا يزرق على الفراش، إذا رام الحاجة خرج قضاها وعاد إلى محله وأقام لا يبرح عن ظله، وأوصيه يعلقه أمام سريره ليأنس بهديره، فأخذت الحمام وسمعت الكلام ولم تسألها عن حكمة ذلك ولا عما قصدته من المسالك، فإنها تعودت أن تسمع أمرها وتجريه بدون أن تعارضها فيهِ.

إن كنت ترغب في خيرٍ ومعرفة

فاختر حكيمًا وخذهُ الدهر أستاذا

ولا تكن عند بدء الأمر معترضًا

كصاحب الخضر تسأله لما هذا

قال الراوي: ثم إن السيدة نعاس علقت القفص في مكانه، وأرسلت إلى عز الدين أن يزورها، فلما حضر وجلس قالت له أمه: يا ولدي عندي هدية وتحفة سنية أريد أن أهديها إليك وهي زوج الحمام هذا. وأشارت إليه وهو معلق، فنظر عز الدين إليه وأعجبه لونه الياقوتي وصوته اللاهوتي، فقبله وقام وحله فوصفته إليه وأوصته عليه فشكرها على برّها وعنايتها به طول عمرها، ثم انصرف بالقفص فعلقه في مكانه أمام السرير الذي ينام عليه حسب إشارة أمه إليه، فكان إذا حضر من شغله انطرح على فراشه وأخذ يتفرج على حمامه ويطرب من أنغامه، وينظر إلى مداعبة الذكر للأنثى والأنثى للذكر، وانعطافه إليها وانعطافها إليه، وحنوه عليها وحنوها عليه، وتقبيلها لهُ وتقبيلهُ لها، وإذا حنّ للوصال غمزها فاسترخت أعضاها وحنت للذكر فعلاها وقضى منها الوطر، ثم قبلها في طوقها ونزل من فوقها.

وانعطف لها فدخلت تحت جناحه وانعطفت عليه فضمها إليه، وأخذ في الهدير والتغريد وكلما انتهى دور أخذ في دور جديد، واستأنس الحمام بالمكان وزاد في الإحسان والإتقان، وأحسن تلك الفصول بالأصول، وصار عز الدين مشغوفًا به ومشغولًا، وكان يضيع عنده أغلب الأوقات حتى سرت فيه حميًّا تلك اللذات وحنّ الطبع للائتلاف ومال القلب للانعطاف وتحللت النفرة بحكم الفطرة.

يقود القلب للأشجان قسرًا

حنو الطائرين من الحمام

بذا قد جاءت الأخبار تترى

ومسندة إلى أهل الغرام

قال الراوي: وفي يوم من الأيام حضر عز الدين يزور أمه السيدة نعاس فسألته عن حمامه، فقال لها: يا أماه حمامك هذا قد أنسني وسلاني وبحسن تغريده أشجاني، وحكى لها عما ينظره من حسن ائتلافه وكثرة انعطافه، وكيف لا يسأم الاتصال ولا يمل من الوصال، وقال: يا أماه وقد تمنيت أن أكون ذاك لولا خشية الهلاك. فقالت له: وما في ذاك من الهلاك. فقال: لأني أظن أن كل من كنَّ وراء الأستار خائنات مثل جلبهار.

إذا ما رمت أن تحيا سعيدًا

فلا تشغل فؤادك بالنساء

فهنَّ الجامعات لكل نقصٍ

وهن الجالبات لكل داء

قال الراوي: فقالت السيدة نعاس لابنها عز الدين: يا ولدي ولا تحكم بهذا الحكم فإن بعض الظن إثم، وكم في الخدور من أقمار وبدور، وكل جميلة عفيفة وعقيلة شريفة تحن للصفا وتحافظ على الوفا وتألف الهنا وتأنف من الخنا.

كم في الخدور وخلف الستر من رشا

لم يحكها في البها شمسٌ ولا قمرٌ

غراء ميمونة قد زانها حسبٌ

عذراء مكنونة ما مسها بشرٌ

قال الراوي: فقال عز الدين: يا أماه هذا شيء مسطور في الكتاب عن أهل زمان وألا موجود منه شيء الآن؟ فقالت يا ولدي: هذا موجود وفي الإمكان وإن أردته كان. فقال: أظن أن بعض النساء ذوات الغايات وصفن لك بعض البنات وبالغن في المديح حتى حسبتِ القول صحيحًا. فقالت له: لا تقل كذا يا ولدي فإني لست بالتي تغرّها الأوهام وتثق بزخرف الكلام، ولكنني أتثبت النبأ قبل التصديق ولا أعمل بالخبر إلا بعد التدقيق، فثق بخبري وسلم لنظري فمناي الوحيد أن تكون سعيدًا، فخجل عز الدين من أمه وجعل ينظر في كمه، ثم قال لها: يا أماه ما قصدت هذا القصد ولا وصلت لهذا الحد، وإنما سوء الظن تمكن من نفسي وغلب على جميع حسّي، ولكن يا أماه عهدي بك أن لا تدخلي ولا تطلعي، فمتى نظرتِ ومتى اختبرت ومتى وثقت بما أشرت. فقالت: اعلم يا ولدي أنني صنعت وليمة فاخرة ودعوت إليها نساء البلد وكل والدٍ وما ولد. وبعد الطعام نزلوا البستان ونظرت عليهم من الإيوان، فرأيت بنتين أختين حسبتهما غصنين أو من الحور الحسان، أجملهن ذاتًا وأكملهن صفات وأعدلهن قدًّا وأوردهنَّ خدًا وأغزلهنَّ طرفًا وأميلهن عطفًا، فأحضرتهما عندي واختبرتهما جهدي فلم أرَ إلّا فطانة وعقلًا ورزانة وفضلًا وهمة وأمانة وعفة وصيانة، وهما من عائلة شريفة وأبوهما كأبي حنيفة، فاخترت

الصغرى لك والكبرى لشاور أخيك، وإن قبلت ترى ما يسرك ويرضيك، فلما سمع عز الدين من أمه السيدة نعاس هذا الكلام أبان الابتسام وحن إلى القرين وألف العرين، وقال: يا أماه ما دام أخي شاور معي فاشرعي إن شئت أن تشرعي فقد تركت اللجاج وقبلت الزواج.

سحر البيان إذا ما حل في أذنٍ

قاد الفؤاد وإن شاء أصلاه

فكم خلي وسحر القول تيمهُ

وكم شجي وسحر القول أخلاه

قال الراوي: ولما رأت السيدة نعاس من ابنها الرضى والتسليم عرفت حكمة حمام أم حكيم، فأحضرتها وأخبرتها ففرحت وهنأتها بذلك، وقالت لها: اشرعي الآن في مهمك لا كان ما يهمك إن شاء الله، ولما طلع الملك عمر شاه أخبرته السيدة نعاس بالقصة فتعجب من تقلب أم حكيم في الأوضاع وتفننها في الاختراع والابتداع.

إذا ما كان للإنسان عقلٌ

وفي التدبير يسعده القضاء

وكان بأمر دنياه خبيرًا

تصرّف في الأمور كما يشاء

قال الراوي: ولما كان في الصباح نزل الملك إلى الديوان، وأرسل إلى قاضي القضاة رسولًا يعلمه بقدوم الملك إلى داره فاستعد لقدومه، وركب الملك عمر شاه ومعه وزراؤه وأمراؤه والسيد أبو الحسن بن كريم، وذهبوا إلى دار قاضي القضاة وكان واسع الثروة والدار وله مروءة وهمة عالية، ولما وصل الملك ومن معه استقبلهم قاضي القضاة بالبشر والانشراح وخفقت على أرجاء داره ألوية الأفراح، وجلسوا بمكان في غاية الانتظام والإتقان كأنه إيوان كسرى أو خورنق النعمان، وحياهم قاضي القضاة بكل تحية وطرفة سنيّة، ولما فرغوا من السلام والكلام شرعوا في ذكر الغرض والمرام. فقال قاضي القضاة: أنا وما أمتلك في قبضة سيدنا الملك فنحن الكل له عبيد فليفعل ما يشاء وما يريد. فشكره الملك على هذا الجواب وعقدوا العقد وكتبوا الكتاب، ونثرت الدراهم والدنانير على الكبير والصغير، وقد لاحت لوائح الأنس والسرور وفاحت روائح الطيب والبخور، وشربوا السكر المبلول بالعنبر المحلول، وشمل العطاء والأنعام جميع الخاص والعام.

وأحسن مجلس فيه انشراحٌ

مكانٌ فيه ينعقد النكاحُ

لأن الصهر في حضر وبدوٍ

أساس الكون يغدى أو يراح

قال الراوي: وانصرف الملك وامتلأت الدار بالزوار والمهنئين يهنئون قاضي القضاة على مصاهرة الملك عمر شاه وابنه عز الدين، وأخذ الجميع في التجهيز والاستعدادات واستحضار المعدات من كل الجهات، وبعد أيام شرعوا في الأفراح والليالي الملاح، واتقنوا الزينة في كافة المدينة، وعمت الولائم والمآدب كل آكل وشارب وبذلوا في هذا العرس كل مصون وتنافس فيه المتنافسون، وأنفق الملك إنفاقًا زائدًا فات الحصر وفاق خراج العراق ومصر، وأما السيدة نعاس فكانت أسرّ الناس وبذلت ما في وسعها بحسب كريم طبعها.

إن الولائم والأعراس منقبة

ومظهر الفخر في الأعمال والهمم

يكاد يبذل فيها الروح صاحبها

بغير كره ولو أودى إلى العدم

قال الراوي: ولما صفا الأنس وطابت النفس وانشرح القلب الحزين، زفوا نفوس لشاور وشموس لعز الدين، ودخل الاثنان وقرت العينان، ولما خلا عز الدين بشموس وتلك العروس وجلس وأتنس ولم ينظر في سورة عبس، وقد رأى ما سرّه وفاق أمله ألف مرّة حمد الله وأثنى عليه، وعرف فضل أمه ونظرها العالي وقدرها الغالي، وأقام معتكفًا في خلوة الأنس لا يبرح من ظل إلى شمس.

قل للعروس إذا غدا

سكران من خير الوصال

من بعد عام فانتبه

للسعي يا رب العيال

قال الراوي: وفرحت السيدة نعاس وهنأتها جميع الناس وقرت عينها بابنها. أما الملك عمر شاه فإنه حمد الله وأثنى عليه وشكره على ما أعطاه وأولاه من الإحسان وجزيل الامتنان، وقال: قد بلغت من الأمل منهاه وليس لي إلا التخلي لعبادة الله، وبعد عام تخلى عن الملك لولده عز الدين وجعل شاورًا وزيره الأمين، وتفرغ للاجتهاد في العبادة وصار يعبد الله ويرعى أولاده.

إذا ما نلت في الدنيا الأماني

وسعدك حلَّ في برج الكمالِ

فشمر واطلب الأخرى مجدًّا

وسبح باسم ربك ذي الجلالِ

قال الراوي: وفي يوم من الأيام استيقظت أم حكيم من النوم فتوضأت وصلت ثم زارت من بالقصر إلى بعد العصر فتوجهت إلى السيدة نعاس وجلست معها وأكثرت من شكرها والدعاء لها ولابنها وللملك عمر شاه، ثم دخلت على الملك عمر شاه فسلمت عليه وقبّلت يديه وجلست برهة لديه ودعت له وودعته وانصرفت إلى مكانها المخصوص بها، فاغتسلت ولبست ثيابًا بيضًا ودخلت إلى خلوتها وقامت

تصلي إلى الصباح، فدخلوا لخدمتها فوجدوا الباب مفتوحًا والفراش مطروحًا وهي ساجدة جسم بلا روح، فعدلوها في الفراش وبكوا عليها وأعلموا الملك والسيدة نعاس فحضرا يبكيان وينتحبان حتى بكت جميع الناس، وأمر الملك بتجهيزها فغسلوها ووقفت السيدة نعاس بنفسها لغسلها وجهزوا وخرجت وحمل الملك في نعشها حتى خرج من باب القصر، ومشي أمام جنازتها فمشت جميع الوزراء والأمراء وأعيان خراسان والرؤوس والأجناد في ثياب الحداد، وساروا بأم حكيم في مشهد عظيم يشهد لصاحبه بالسعادة ونيل الحسنى وزيادة إلى مكان كان أعده الملك عمر شاه لنفسه إذا آن أوان رمسه فدفنها به وشاده رباطًا أقام فيه يعبد ربه حتى أتاه اليقين.

مهما تنل من نعمة للـ

دنيا فليست دائمة

إن السعادة كلها

في نيل حسن الخاتمة

فسبحان من لا يعم إلّا فضله وإحسانه، ولا يدوم إلا ملكه وسلطانه، ولا يبقى إلا وجهه الكريم والعمل السليم.

سيفنى الخلق جيلًا بعد جيلٍ

ولا يبقى قديم أو حديثُ

فقدّم ما استطعت جميل ذكر

فما هذا الورى إلا حديثُ

قال الراوي: ثم قام القوم وحلّ النوم. انتهى

وكان الفراغ من تبييض هذه
الرواية في ثامن محرم سنة
1305 للهجرة.

محمد تميمي

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان

رقمنة

مشروع النشر الرقمي